

الفصل الخامس

كمال إعراضه ﷺ

عما سوى الله عز وجل

من دلائل النبوة في هذا الخلق الكريم :

إن المرتبة العليا في كمال الإعراض عما سوى الخالق سبحانه وتعالى تستلزم فيما تستلزمه :

١- معرفة كمالات الألوهية ، والعلم بما يليق بالله عز وجل من الأسماء والصفات .

٢- معرفة كل ما من شأنه أن يقرب إلى الله تعالى .

٣- معرفة كل ما من شأنه أن يبعد عن الله عز وجل ويحجب العبد عن خالقه تعالى .

٤- معرفة حقوق الخلق وواجباتهم أمام الله عز وجل وهذا يقتضي معرفة جميع الكمالات الممكنة للمخلوقات .

٥- صرف جميع الشؤون والأحوال لله عز وجل .

٦- إخلاص النية في كل قول أو عمل أو حركة أو سكنة لله عز وجل .

والكمال في هذه الشؤون لا يكون إلا بكتاب معجز من عند الله عز وجل محيط بكل ما يرضي الخالق سبحانه ، وبكل ما يقرب من سخطه تعالى ، ويبين

للناس كل ما يسعدهم في دنياهم وأخراهم في جميع أحوالهم : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والأخلاقية والتربوية والنفسية .. والذي يبلغ هذا الكتاب الإلهي المعجز في تفصيله لجميع مراتب الكمال الإنساني ، يكون معجزاً في جميع ما فصله القرآن العظيم من هذه المراتب .

ولو لم تكن لرسول الله ﷺ من خصلة سوى الإعراض عما سوى الله تعالى لكفى ذلك دليلاً على أنه أكمل البشر على الإطلاق ، وإن أشد الناس جوداً لو تأمل في هذه الناحية من نواحيه ﷺ لما وسعه سوى التسليم بالإعجاز المحمدي المبين .

يعرض عليه المشركون المال والرياسة والملك وما عندهم من الدنيا : فلا يقبل منهم صلوات الله وسلامه عليه إلا الإسلام . ويساومه الناس على النصرة والتأييد ، في المواطن التي يعز فيها وجود الناصر ويتعلق فيها الإنسان بكل من يمد يد المعونة إليه بأي ثمن ، ويشترطون في مقابل نصرتهم ترك العمل بأي نص من نصوص القرآن العظيم ، أو المشاركة في الحكم ظناً منهم بأن المسألة مسألة سلطان وإمارة وملك ، فيرفض صلوات الله وسلامه عليه أي يد تمتد إليه ولا يقبل إلا الإسلام دون قيد أو شرط .

واستخدمت في المساومة جميع ضروب الضغط المستمر المتواصل الذي لا يطيقه سواء ﷺ من الغمز بالقول ، والدعاية الفاجرة ، وتعذيب من آمن بالله تعالى ، إلى الحصار والحرمان من القوات ، ومحاولة القتل والاعتقال ، بل والتهديد بالإبادة الجماعية : كل ذلك ليكيف عنهم صلوات الله وسلامه عليه ويترك الدعوة إلى الإسلام فيلجمهم بقوله (فوالله لا أزال أجاهد على الذي

بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة^(١)) ويرميه الخصوم عن يد واحدة ويجمعون على يد واحدة ويجمعون على الكيد له ، فلا يكثر بمخلوق مهما آذاه ومهما كاد له ، ولا يزال به حتى يدخل في الإسلام ، فيبحث هل عند رسول الله ﷺ شيء من أثر قد تركه إيذاؤه للمسلمين قبل إسلامه ، فلا يجد شيئاً . روى الترمذي في الشمائل عن عمرو بن العاص : قال كان رسول الله ﷺ يُقبل بوجهه وحديثه على أشرف القوم يتألفهم بذلك ، فكان يقبل بوجهه وحديثه عليّ حتى ظننت أنني خير القوم ! فقلت يا رسول الله : أنا خير أو أبو بكر ؟ قال: أبو بكر فقلت: يا رسول الله أنا خير أو عمر فقال: عمر . فقلت: يا رسول الله ، أنا خير أو عثمان ؟ قال: عثمان . فلما سألت رسول الله ﷺ فَصَدَّقَنِي فَلوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتَهُ مَعَ أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ هَذَا قَدْ اسْتَخْدَمَ كُلَّ دَهَائِهِ قَبْلَ إِسْلَامِهِ لِلصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى . وَكَانَ مَذْذُوبٌ قَرِيشَ لَدَى النَّجَاشِيِّ لِيُطْرَدَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِ .

روى ابن اسحق عن عمرو بن العاص أنه قال :

(خرجت عامدا إلى رسول الله ﷺ لأسلم فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبل من مكة ، فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسم^(٢) ، وإن الرجل لنبي ، أذهب والله فأسلم ، فَحَتَّى مَتَى ؟! قال : قلت : والله ما جئت إلا لأسلم . قال : فقدما المدينة على رسول الله ﷺ ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع . ثم دنوت فقلت : يا رسول الله ، إني أبايعك على أن يُغْفَرَ لي ما تقدم من ذنبي ، ولا أذكر ما تأخر قال . فقال رسول الله ﷺ :

(١) صفحة العنق .

(٢) المنسم هو خوف البعير . يشير إلى استقامة الطريق .

يا عمرو ، بايع فإن الإسلام يَجِبُ^(١) ما كان قبله ، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها. قال : فبايعته.) وقد أسلم معهما عثمان بن طلحة بن أبي طلحة .

ولا يقبل إلا ما أمر الله تعالى بقبوله مهما كان الشخص قريبا أو محبا: ولقد خيّر صلوات الله وسلامه عليه أمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهم بين أمرين : التسريح الجميل - الطلاق - إن كن يردن الحياة الدنيا وزينتها لأن رسول الله ﷺ يضع قواعد الحياة الإنسانية كما أمره الله تعالى فمن خالفها فلا يقيم معه وإن اخترن البقاء فبشرطه: وهو الاهتداء بهديه صلوات الله وسلامه عليه .

وفي غزوة حنين قسم رسول الله ﷺ الغنائم ، ولا عليه لو أعطى ذوي البلاء من أصحابه ما يريد ، ولكنه تركهم وأعطى المؤلفة قلوبهم ، ولم يحاب أصحابه مع بلانهم في الإسلام ، بل تركهم لإسلامهم لأن الإسلام إذا ما تمكن من الإنسان أقبل على الله عز وجل وأعرض عما سواه ، وأصبح في مستوى أعلى من مستوى التأليف والترويض ، بل بالعكس يصبح في منزلة الذي يروّض غيره ويؤلفه على الإسلام . قيل لرسول الله ﷺ في توزيع غنائم حنين: (أعطيت عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس مائة مائة وتركت جعيل بن سراقه الضمري ! فقال رسول الله ﷺ : أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقه خير من طلاع^(٢) الأرض كلهم مثل عيينة بن حصن ، والأقرع^(٣) بن حابس ، ولكني تألفتهم لئسّما ووكلت ابن سراقه إلى إسلامه) لا تفاضل عنده ﷺ بين الناس في متاع الدنيا وزينتها ، فكبير القوم أو أدناهم ، الملوك أو العامة عنده صلوات الله وسلامه عليه في الإسلام سواء ، لا فرق

(١) يقطع .

(٢) ما يفيض ويسيل عنها .

(٣) كانا كبيرين في قومها .

بين هذا وذاك في دين الله عز وجل . ولما أن النفس تميل إلى احترام المظهر، كان صلوات الله وسلامه عليه يُعَلِّمُ أصحابه ويريهـم حتى لا يتأثروا بهذا الميل .

مرَّ رجل يـُختال في برديه ، إن جلس أفسح له الناس ، وإن تكلم أنصت له الحاضرون ، وسمعوا قوله ، وإن رغب في الزواج قبله الناس ، ومر آخر : إن جلس له يأبه له أحد ، وإن تكلم لم يسمعه أحد وإن رغب في الزواج زهد الناس فيه . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه " هذا خير من ملء الأرض مثل هذا " . ينبههم صلوات الله وسلامه عليه إلى أن الإنسان لا يقاس بظاهره ، فقد يكون المظهر حسنا والباطن فاسدا ، وقد يكون المظهر حقيراً ، ولكن نفسية صاحبه نفسية عالية ، قد طبعت على مكارم الأخلاق ومعاليلها . يقول صلوات الله وسلامه عليه (رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة رضوان الله تعالى عليهم .

والإعراض عما سوى الله سبحانه وتعالى ، يرتبط بباقي الكيان الخلقي : كالوفاء ، والإخلاص ، والتوكل ، والزهد والعفو والصبر والاعتزاز بالله تعالى . فالذي ينقصه الوفاء يقبل المساومة على الخلف . والذي ينقصه الإخلاص يقبل المساومة على التبديل . والذي ينقصه التوكل على الخالق عز وجل يقبل المساومة على الدنيا . والذي ينقصه الزهد يقبل المساومة على المال ، والذي ينقصه العفو يقبل المساومة على الانتقام ، والذي ينقصه الصبر يقبل المساومة على الاستسلام ، والذي يفقد العزة بالله تعالى يقبل المساومة على السلطة الخ ...

وإذا نظرنا في هذه الخصلة وعلاقتها بحليته ﷺ الشريفة لوجدنا أنها تقتضي ، كما روي في الحديث : أن جلَّ ضحكه التـبسم ، إذا التفت التفت جميعا .

خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، دائم الفكرة ليس له راحة ، لا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، وإذا تكلم تكلم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير . دمثاً لا يذم شيئاً لم يكن يذم ولا يمدحه ، لا يقام لغضبه إذا تعرّض للحق بشيء : حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . أبعد الناس عن مواطن الريب ، أقنع الناس باليسير من الدنيا ، يلبس ما يجد ، يأكل ما يجد ، لا يترفع عن أصحابه في شيء : روى أبو داود عن أبي أمامه رضي الله تعالى عنه قال : (خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً على عصا ، فقمنا إليه . فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً . وإذا جاء إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ولا يدع أحداً يمشي خلفه ، ولا يدع أحداً يمشي معه وهو راكب حتى يحمله ، فإن أبي قال " تقدمني " إلى المكان الذي يريد . لا يحجب عن مجلسه أحداً ، فلا ضرب ولا طرد ولا إليك . إليك . فراشه آدم حشوه ليف ، أو مسح يثني ثنيتين ، أو سرير مرمول بشريط قد يؤثر في جنبه .

ومع تعرض كل أصحابه لخدمته ، كان يخدم نفسه ، ويعلف ناضحه ، ويحمل حاجته من السوق ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشتري سراويل ، وقال للوزان : زن وأرجح . فوثب إلى يد رسول الله ﷺ يقبلها ، ف جذب يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم . ثم أخذ السراويل ، فذهبت أحمله ، فقال ﷺ : صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله .

والذي يتأمل في أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه يستطيع أن يصف حليته الشريفة وصفاً لا يختلف عما نصت عليه الأحاديث ، وإن حدث اختلاف فإنه إنما يرجع إلى قصور الواصف عن معرفة أخلاقه العاطرة الكريمة .

وإن كمال التعلق بالله عز وجل ، وكمال الإعراض عما سواه يورث فيما يورثه :

١- الإتيان النفسي : فالإعراض عما سوى الله تعالى يقتضي أن الإنسان مهما أتى من الأسباب الموصلة إلى أمر من الأمور ، ومهما بلغ من إحكام تدبيرها ، فإنه يفوّض النجاح والظفر إلى الله سبحانه وتعالى . وقد بلغ رسول الله ﷺ السنهاية في إحكام كل أمر ، لأن إحكام التدبير مما تقتضيه الحكمة الإلهية ، ولا يعلّق النصر إلا بالله عز وجل . ولذا نجد أن الصحب رضوان الله تعالى عليهم حين انهزموا عنه في وقعة أحد وفي حنين : يبقى رسول الله ﷺ وحده في وجه العدو ، فالنصر لم يكن مناطا بعد حسن التدبير إلى الأسباب ، ولكن النصر والظفر من عند الله عز وجل ، وقد وعد رسوله صلوات الله وسلامه عليه بالنصر . وهذا موطن من المواطن التي يضطرب فيها المرء لو كانت عنده أية بادرة من الالتفات إلى ما سواه عز وجل .

وهذا الخلق يجعل الإنسان عل حالة واحدة سواء نال ما طلبه أم لم يدركه ، لا يهاب أمرا خشية من عدم النجاح ، يرضى بما حدث ويواجه الوقائع بقلب مطمئن ثابت قد امتلأ إيمانا .

والشريعة المحمدية هي مصدر الاتزان النفسي الكامل الذي ليس له من مصدر مسئول سوى الإيمان كما فصله سيد العلماء بالله تعالى طبقا لما جاء في القرآن العظيم . ومن فقد هذا الإيمان ضل سعيه والتبست عليه الأمور التي يتعلق بها كمال وجوده فيقع في الشر وهو يسعى إلى الخير . ويصيبه الضرر من حيث كان يطلب المنفعة ، وأخف وأهون ما يصيبه من الشقاء تشتت الأهواء ، واضطرابه بين دواعيها ، وحرمانه من سعادة الهدى الكامل والاهتداء الصحيح شطر الوجهة التي ينبغي أن يتولى شطرها ، وهيهات أن يبلغ من المعرفة ما يجعله يفعل ما يجب أن يفعل .

٢- **قوة العزم** : ذلك ان العزم يكون على قدر التعلق بالاسباب ، فإذا ما ذهبت ذهب العزم . أما إذا كان مصدر العزم هو التعلق بالله عز وجل ، والإعراض عما سواه ، فعلى قدر كمال هذه الخصلة تكون قوة العزم ، ومن هنا تستطيع أن تتأمل في قوة سيد أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه .

٣- **الإخلاص** : إن الإنسان إذا ما فرغ قلبه مما سوى الله عز وجل ، ولم يتعلق إلا بالله تعالى ، ورث الإخلاص في القول والعمل ، والشريعة المحمدية ترفع الإنسان إلى أعلى درجات التكريم حينما تفصل له الوجود تفصيلاً يجعله لا يعامل إلا خالقه في جميع شئونه ، ولا أعز ولا أرفع ولا أنبل ممن يتحقق بهذا المقام الذي يخلع عليه مكارم الأخلاق ومعاليها .

أما إذا عود الإنسان نفسه التوجه إلى غير الله عز وجل ، أو غاب الإنسان عن شهود ما يليق به من الاستعانة بالحق سبحانه والافتقار إليه ، فإنه ينقص بقدر ما نقصه من قوة اليقين .

٤- **الشكر** : إن شكر الله عز وجل يتحقق بإعراض الإنسان عما سوى خالقه، مما يثمر له كمال التوجه إلى الله عز وجل .

٥- **الحب** : إن كمال حب الله تعالى يقتضي الإعراض عما سواه ، ومن تمام المحبة : أن يحب ما أحبه الله تعالى ، وأن يعرض عما أعرض عنه الله تعالى ، ولما أن هذا ليس في طاقة المخلوق : فإنه لا يتم إلا بالافتداء برسول الله ﷺ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣١- قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ٣٢ ﴾ سورة آل عمران .

١ - المشركون يعرضون الدنيا

على رسول الله ﷺ

اتفق أربعة من زعماء بطون قريش : الأسود بن المطلب بن أسد من بني أسد ، والوليد بن المغيرة من بني مخزوم ، وأمّية بن خلف من بني جمح ، والعاص بن وائل من بني سهم ، على أن يعرضوا على رسول الله ﷺ مشاركته في الأمر في مقابل اعتراف متبادل يتم بين رسول الله ﷺ وبينهم ! كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ! يساومون الله عز وجل على الإيمان برسالاته ؟.

وجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : (هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد ! فنشترك نحن وأنت في الأمر ! فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت أخذت بحظك منه !) يظنون أن النبوة تكون بالمساومة ! والرسالة تكون بالعرض كسلعة من السلع ! وكلامهم يشتمل على الحجة عليهم : فإنهم لو اعترفوا صادقين ، وآمنوا بالله عز وجل ، لكان أول شيء يفعلونه هو تحطيم أصنامهم فالمسألة إذن ليست مسألة إيمان ، ولكنها مسألة إغراق في الضلالة والمكر والخداع .

ولما فشلوا عادوا ليعرضوا عرضا جماعيا ، اطمأنت إليه نفوسهم : ذلك أن أمل كل فرد في الحياة هو السعادة . ووسائل السعادة في نظر المشركين ومن شابههم : هي المال والملك ؛ ولم يفتن الناس مثل الصراع على المال والسلطة والرياسة : فليعرضوا جميعا على رسول الله ﷺ ، أعز الأمانى التي يمكن أن يدركها إنسان في الدنيا : المال والملك . فليحكموه في أموالهم يفعل بها كيف شاء فهو الأمين على كل شيء ، وليملكوه عليهم فيكون سيدهم المطاع فهو

نعم السيد ، وذلك كله في مقابل التخلي عن تبليغ الوحي الإلهي ! وفات هؤلاء أن السعادة ليست في شئ أبدا إنما هي في أمر واحد . نعم في أمر واحد فقط لا غير . فإنك مهما قلّبت من كتب وأسفار ومهما بحثت فيما وُضع البشر عن السعادة لم تزد إلا إيماننا بأنها منحصرة في ذلك الأمر : وهو الإيمان بالله ورسوله ، ويتفاوت الناس في السعادة على قدر تفاوتهم في الاقتداء برسول الله ﷺ . فقد جاءنا بالسعادة العظمى وفصل الطرق الموصلة إليها ، وحذرنا من كل طريق يبعد الناس عنها ، وليس في وسع مخلوق أن يبين هذا البيان القرآن الجامع سواه ﷺ . ومن المفارقات أنهم يعرضون حطام الدنيا على من جاء للعالمين بسعادة الدنيا والآخرة !

وإذ ظنوا أنهم عالجوا الأمر على أتم وجه وأحسنه ؛ انتدبوا من بينهم عتبة بن ربيعة العبشمي ليبلغ رسول الله ﷺ ما اتفقوا عليه ، أي أنهم اختاروا زعيم بين عبد مناف الذين لم يسلموا بعد ليكون أشد تأثيرا .

وتوجه عتبة إلى المسجد الحرام فوجد رسول الله ﷺ جالسا بمفرده ، فجلس إليه وطلب منه ﷺ أن يستمع إلى ما تعرضه قريش . فقال رسول الله ﷺ : (قل يا أبا الوليد اسمع) .

فقال عتبة : (يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر : مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا ؛ سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا نراه لا تستطيع أن تردده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل

حتى يداوى منه) حتى إذا فرغ عتبة قال رسول الله ﷺ : (أقد فرغت يا أبا الوليد؟) . قال : نعم . فقال ﷺ (فاسمع مني) . قال عتبة (فقل) :

وشرع رسول الله ﷺ يتلو عليه من سور القرآن العظيم سورة (حم) فصلت . وأخذ عتبة يستمع إلى كلام الله عز وجل رطبا من فم رسول الله ﷺ في المسجد الحرام .

كانت حجج المشركين والمعارضين تتداعى وتتهافت في النار كالفراش أمام النور الأزلي الذي يسطع من كلام الله تعالى ، فتقشعر له الجلود ، وتتبدد أمامه ظلمات الباطل ، آيات الله تفصل الدنيا ونظامها ، وتصف الآخرة ومافيها ، يَعدُّ : فتَهَبُّ منها أنفاسُ الرحمن ، فتتشرح الصدور وتبتسم الثغور ، وتتوعد : فتقصف لها السماء وتهتز الأرض ، وترعد القلوب . إنها تهز الوجود من أساسه . لها حلاوة لا تخطر على قلب ، وسطوة تتلاشى أمامها المخلوقات ، ونور يجلو وجه الحق في كل شيء ، ومعان لا نهائية لا يدرك مخلوق لها قرار ، كلام الله عز وجل : لا ينكره سوى جاحد قد غطى عينيه بيده لينكر وجود الوجود ، وهو يفعل المستحيل لأنه لا يستطيع أن ينكر وجوده .

وأخذت عتبة رهبة الموقف ، فلم يستطع النفوه بكلمة ، واعتزته لحظة من اللحظات التي يقوى فيها العقل على سلطان النفس ، فتهاوت أمام ناظريه حجج المشركين ، وتبدى له الحق بأوضح صورته ، كما انكشف له الباطل في أبشع صورته .

ولما فرغ رسول الله ﷺ قال : (سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك) . فقام عتبة منصرفا مبهوتا ، وهو لا يزال واقعا تحت تأثير ما سمع ، يحاول أن يجد أي تعليل لاضطهاد المشركين للمسلمين فلا يجد ؛ ولماذا يضطهدونهم

وفي بلاد العرب تعيش كل ملة من يهود ونصارى وصابئة وعبّاد وثن !
المسألة إذن ليست مسألة خلاف في الدين ! وكان قد وصل إلى دار الندوة
بجوار الكعبة فلما رآه مجلسه قالوا (نحلفُ بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير
الوجه الذي ذهب) وأدركوا بفراصة العربي وذكائه الفطري الحاذق الفرق بين :
حالة عتبة وقد نفخت أعطافه حمية الجاهلية حين توجه ليبلغ عرض قريش ،
وبين حالته عندما أقبل راجعا ونفسه تكاد تزهق من سطوة الحق .

فلما أخذ مجلسه بينهم قالوا : (ما وراءك يا أبا الوليد) ؟

قال عتبة : (ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ! والله ما هو
بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي
وخلصوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه أو فاعزلوه : فوالله ليكونن لقوله الذي
سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تُصِبه العرب فقد كُفِيتُموه بغيركم ؛ وإن يظهر على
العرب فملكه ملككم ، وعزه عزمكم ، وكنتم أسعد الناس به) .

وهكذا فنَدَّ عتبة الحجج المادية التي عرضها المشركون وفكروا فيها كحل
نهائي ؛ لقد سمع ما لا يمكن أن يسمع من طالب مال أو منصب أو ملك أو
رياسة ، سمع ما لا يُمكن أن يُسمع من عند مخلوق ، وإذ كانوا جميعا يعلمون
أن رسول الله ﷺ أبر الناس بالخلق وأرحمهم وأعطفهم ، فلماذا يصدونه
ولا يتركونه وشأنه فإن كانوا يطلبون العزة ففي ذلك عزهم ؟ وهكذا انقلب
عرض المشركين وبالأعلى عليهم — ولو أطاعوه إذن لأفلحوا — ولكن النفوس قد
ضربت عليه حجب كثيفة من الباطل من الصعب اختراقها فكان جوابهم
(سحرك يا أبا الوليد والله بلسانه !) أي جواب هذا ! إنه الباطل دائما لا يقوم
إلا على حجة داحضة تبحث عنها فلا تجدها ، لأنها في الواقع لا وجود لها إلا
في مخيلة صاحبها ، وسرعان ما تنهافت إذا ما سلَّط عليها الحق أضواءه ،

فيختفي الباطل ولا يظهر إلا الحق ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعةٍ
يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ .
والله سريع الحساب - ٣٩ - أو كظلماتٍ في بحرٍ لَجِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ من فوقه موجٌ
من فوقه سحابٌ . ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم
يجعل الله له نوراً فما له من نور - ٤٠ - ﴾ سورة النور .

وهنا تتغلب نفس عتبة عليه فيفضل إرضاء قومه على اتباع الحق ، فيقول :
(هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم) .

ولعل أثر هذا الموقف لم يتلاش من نفسه حتى وقعة بدر إذ قال لقومه قبيل المعركة
:(فارجعوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ،
وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تصيبوا منه ما تريدون) وذهب عتبة ليكون عبرة لمن
أرضى الناس فأعرض عما نزل من الحق .

وشك القرشيون في عتبة لأنه من بني عبد مناف ، ولذا تجدهم يرسلون مرة
أخرى إلى رسول الله ﷺ ، يطلبونه ، فجاءهم رسول الله ﷺ ، وعرضوا عليه
العرض السابق بصفة جماعية ، حتى ينتفي الشك فيمن يرسلونه .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : (ما بي ما تقولون . ما جئت بما جئتم به
أطلب أموالكم و لا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني رسولا وأنزل
علي كتابا . وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت
لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي ،
اصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم) .

إن الحجة قد لزمتم المشركين من حيث أرادوا المساومة : لقد عرضوا عليه
ﷺ ما عرضوا من الدنيا ، فلم يقبل ، وكلهم قد أقر بأنه لم يسمع بمثل ما يتلوه
ﷺ من القرآن ، وكلهم قد سلم بأمانته ﷺ حتى حكموه في أموالهم ، وكلهم أقر
بسيادته حتى قبلوه لهم سيدا ، فمالهم عن هذا الحديث معرضون ؟

obeikandi.com

٢ - " أَيْكُون لَنَا الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ " !

كان رسول الله ﷺ قبل الهجرة يعرض نفسه في موسم الحج على وفود العرب التي تقبل من كل فج ، ويسأل عن منازل القبائل في عكاظ ، والمجنة وذو المجاز ، قبيلة قبيلة ، فيدعوهم إلى الإيمان بالله عز وجل وما أنزله عليه من الحق ، فيلقى منهم أذى كثيرا ، والقليل منهم كان يتلطف في الرد .

وأتى فيمن أتاها بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الإسلام وإلى نصرته فقال رجل منهم - يقال له ببحرة بن فراس : (والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب !) ثم قال : (رأييت إن نحن بايعناك على أمرك . ثم أظهرك الله على من خالفك ، أَيْكُون لَنَا الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ ؟) فقال ﷺ : (الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء) قال : (أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك) .

إن الذي يشترط على الله تعالى في إيمانه ليس بمؤمن بالله تعالى ، وإنما هو مؤمن بما اشترطه ، ولو كان مؤمنا حقا لما اشترط شيئا . فالإيمان يطهر القلوب من أن تقصد سواه عز وجل ، كما يرد جميع الأعمال التي لا تصدر عن ابتغاء وجه الله تعالى : كالأعمال الصادرة عن المباهاة والفخر والدعاية والطمع في الشهرة وحب السلطة والتوصل إلى الحكم ، مهما كانت في مظهرها خيرة ، لأنها في الحقيقة لا ترتبط ولا تركز إلا على الغش والخداع والنفاق والرياء والتنازع والحقد ، والانقطاع عن الله تعالى . وإن المرء ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو وهو من أهل النار ؛ لأن باطنه متحقق بأوصافهم . وإن المرء ليظهر بأنه يعمل عمل أهل النار ؛ وهو من أهل الجنة لأن باطنه كباطنهم .

فلا يَمَن أحد بعلمه على أحد أو يتباهى به ويفخر على الناس ، قال أرحم
الخلق بعباد الله تعالى (لا يدخل أحد منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار .
ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته) رواه مسلم عن جابر — فلا منة لأحد
على أحد وإنما الفضل والمن لله ورسوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ - ١٥ - قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ - ١٦ - يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ
إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - ١٧ ﴾
سورة الحجرات.

ولما عاد وفد بني عامر ، قصوا ما حدث على شيخ مسن منهم ، كانوا إذا
رجعوا من الموسم حدثوه بما يكون فيه ؛ فقالوا: (جاءنا فتى من قريش ثم أحد
بني عبدالمطلب يزعم أنه نبي ، يدعونا إلا أن نمنعه ، ونقوم معه ونخرج به
إلى بلادنا) ، وأخبروه بأنهم لم يقبلوا .

فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال: (يا بني عامر ، هل لها تلاف ؟ هل
لذنابها من مطلب ؟! والذي نفسي بيده ما تقولها إسماعيل قط ، وإنها الحق فأين
رأيكم كان عنكم !) .

٣- "أخيرك بين ثلاث خصال" !

كان عامر بن الطفيل أحد فتاك العرب وفرسانهم وشعرائهم ، نشأ محبا للفخر والرياسة ، يبذل في سبيل ذلك ما عنده من جهد ، ولا يبالي بعد ذلك أخطأ أم أصاب ، ما دام قد أشبع رغبته منهما .

اجتمع هو ويزيد^(١) بن عبد المدان المذحجي عند أمية بن الأسكر المدلجي ثم الكنانسي ، وكلاهم راغب في زواج ابنته : فأقبلا على عادة العرب على المفاخرة أمام (أمية) ليختار خيرهما وأفضلهما لابنته . فأقبل يزيد على عامر فقال : (يا عامر. هل تعلم شاعرا من قومي سار بمدحه إلى رجل من قومك؟) فقال عامر : (اللهم لا.) قال : (فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي؟) قال : (اللهم نعم.) قال : (فهل لكم نجم يمان ! أو برد يمان، أو ركن يمان !) قال : (لا.) قال : (فهل ملكناكم ولم تملكونا؟) قال : نعم. فنهض يزيد وأنشأ يخاطب أمية بن الأسكر .

أُمَيَّ يَا بْنَ الْأَسْكَرِ بْنَ مَدْلَجٍ لَا تَجْعَلْنَ هَوَاؤَنَا كَمَذْحِجٍ
إِنَّكَ إِنْ تَلَهَجَ بِأَمْرِ تَلَجَجٍ مَا النَّبْعُ^(٢) فِي مَغْرَسِهِ كَالْعَوْسَجِ^(٣)

ولا الصريح المحض كالممزج

فزوجها ليزيد ، ولج التهاجي بينه وبين عامر بن الطفيل .

وكان عامر يرسل مناديه في سوق عكاظ : هل من راجل فأحمله ، أو جائع فأطعمه ، أو خائف فأؤمنه . وكان يحقق على عمه رياسته لبني عامر ، فعقد النية على سلبها منه .

(١) سيد مذحج قتل سنة ٨ ق هـ .

(٢) شجر تتخذ منه القسي والسهام .

(٣) نبات شوكي .

وكانت بنو عامر لا تقطع أمرا لا يحضره أبو براء عامر بن مالك بن جعفر وكان لفروسيته يلقب بملاعب الأسنة ، وله صلة قرابة بقریش إذ أن جدته لأبيه هي فاطمة بنت عبد شمس بن عبد مناف .

وكان أبو براء قد كبر فأراد عامر أن ينتزع منه مكانته في قومه ونافسه على ذلك علقمة بن علاثة من بني الأحوص واستشرى الشر بينهما ولجأ إلى المناظرة وهي مناظرة تقوم بين طرفين تدور حول تفاخر كل منهما على الآخر ويحضرها حكم من زعماء العرب يرتضيه الطرفان المتنازعان فإذا ما حكم لأحدهما بطل حق الآخر ، وكثيرا ما كان ينتهي التحكيم إلى القتال ، لذا امتنع زعماء العرب عن النظر في هذه المناظرة ، وممن قصدها أبا سفيان ابن حرب ، فلم يقل لهما شيئا وكره أن يتدخل في شأنهما وقال لهما : (أنتما كركبتي البعير الأدرم) — أي التي واراها اللحم فلم يظهر العظم — وأبى أن يقضي بينهما .

ثم تداعيا إلى هرم بن قطنه فسوى بينهما ولم يفضل أحداً على أحد مخافة الشر .

فسارا إلى عكاظ حيث لقيا الأعشى^(١) ميمون بن قيس ، وكان الأعشى مقبلا من اليمن وقد منحه الأسود^(٢) العنسي حين امتدحه خمسمائة مثقال من الدهن ، وخمسمائة مثقال من الحل والعنبر .

وخاف الأعشى أن تسلبه القطاع وخاصة من بني عامر ما معه إذا مر بأرضهم، فأتى علقمة بن علاثة فقال له: (اعقد لي حبلا^(٣)). قال: أعقد لك من بني عامر — يقصد قومه — قال: لا يغني عني . قال: فمن قيس . قال: لا.

(١) مات سنة ٧ هـ باليمامة ولم يدخل في الإسلام .

(٢) عييلة بن كعب بن غوث ادعى النبوة بعد حجة الوداع وقتل .

(٣)

قال : فما أنا بزائدك . فأتى عامر بن الطفيل الذي رآها فرصة كي يغلب صاحبه إذ علم أنه لو أجار الأعشى لمدحه مدحة تسير في العرب وترفع عامر بن الطفيل على منافسه . فقال الأعشى لعامر : أجرني . قال : قد أجرتك . قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت ؟ قال : نعم ! قال : وكيف تجبرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جوارى بعثت إلى أهلك بالدية ! فقال : الآن علمت أنك أجرتني من الموت ثم مدحه وهجا علقمة وهذا ما يقصده عامر . ومع هذا لم يستطع عامر أن يغلب عمه وبقيت بنو عامر على ولائهم لملاعب الأسنة .

وقدم أبو براء في أول سنة ٤ هـ إلى المدينة ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فلم يسلم ولم يبعد وقال : (إن أمرك هذا الذي تدعو إليه حسن جميل . فلو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعَوْهُم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك) .

فقال رسول الله ﷺ : (إني أخشى عليهم أهل نجد) .

وكان أهل نجد أشد الناس على المسلمين بعد قريش ، ولو أسلموا لدخل في الإسلام من جاورهم من وسط شبه جزيرة العرب ، ولانفتح الطريق أمام الدعوة إلى الخليج العربي شرقا ، ولما كانت قبائل نجد تسيطر على طريق القوافل العراقي ، فإن إسلامها يُحْكِم حصر قريش اقتصاديا وحربيا وأديبا ويجبرها على التسليم .

وإن موقف أبي براء يحتاج إلى أخذ عهد منه بجوار من يتوجه إلى بني عامر ولم يتردد أبي براء لتفقه في قومه من إعطاء ذلك العهد فقال : (أنا لهم جار ، فأبعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك) ، ومن عادة العرب أن القبيلة لا تخفر جوار زعيمها ، وبعد ما صرح أبو براء بتعهده أصبح إرسال البعث واجبا ، إذ لو

حبس المسلمون البعث عن بني عامر لعرفت ذلك القبائل وكان معنى ذلك أنهم غير جادين في تبليغ الدعوة .

فبعث رسول الله ﷺ إليهم بعثاً حددته بعض الروايات بسبعين رجلاً من خيار المسلمين ، وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي . ومنهم الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان (خال أنس بن مالك) وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهم .

خرج أولئك نفر من أصحابه ﷺ في صفر سنة ٤هـ حتى أتوا غاراً يشرف على بئر معونة ما بين بني عامر وبني سليم وهي إلى بني سليم أقرب . وأرسلوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى بني عامر ، فلما وصل إلى ديارهم : نادى (يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فأمنوا بالله ورسوله) .

ونوى عامر أن يخفر جوار عمه لما كان يتطلع إليه من زعامة بني عامر فجاء وأخذ الكتاب من حرام بن ملحان ولم يقرأه ، بل عدا على ابن ملحان فقتله . واستصرخ عامر بن الطفيل بني عامر ، فلم يجبه منهم أحد وقالوا : (لن نخفر أبا براء فقد أجارهم) ، فاستصرخ بني سليم فأجابه منهم عصية ورعل وذكوان ، وخرجوا يقتفون آثار ابن ملحان حتى أتوا أصحابه ، فمالوا عليهم ، ودافع المسلمون عن أنفسهم حتى استشهدوا عن آخرهم . إلا كعب بن زيد الأنصاري، فإنهم تركوه وبه رمق فعاش حتى استشهد — رضي الله عنه — يوم الخندق .

وكان في سرح المسلمين عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري ، فلما علما بما حدث قال عمرو بن أمية لصاحبه الأنصاري (أرى أن نلحق برسول الله ﷺ ، فنخبره الخبر) فقال الأنصاري : (لكني ما كنت

لأرغب بنفسني عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو). فأقبل على المشركين فقاتلهم حتى استشهد ، وأسر المشركون عمرو بن أمية ، وأطلقه عامر بن الطفيل عن رقبة زعم أنها كانت على أمه ، وذلك بعد أن جز ناصيته .

وعاد عمرو بن أمية إلى المدينة حتى إذا كان بينه وبينها ثمانني برد نقي في طريقه رجلين من بني^(١) عامر فعدا عليهما وقتلها تأراً لأصحابه. وكان لا يعلم أن معهما عهدا من رسول الله ﷺ ، فلما وصل المدينة أخبر رسول الله ﷺ بما حدث . فقال ﷺ : (لقد قتلت قتيلين لأدينيهما) وشق عليه ﷺ ما نال أصحابه وقال: (هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارها متخوفا) .

وأخذ شعراء المسلمين يحرضون بني مالك على عامر بن الطفيل : يقول حسان بن ثابت :

بنو أم البنين ^(٢) ألم يرعكم	وأنتم من ذوائب ^(٣) أهل نجد
تهكم عامر بأبي براء	ليخفره وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي	فما أحدثت في الحدثن ^(٤) بعدي
أبوك أبو الحروب أبو براء	وخالك ماجد حَكَمُ بن سعد ^(٥)

(١) وفي رواية أنهما من بني سليم .

(٢) أعالي .

(٣) يقصد أم أبي براء وهي ليلي بنت عامر بن عمرو بن ربيعة بن صعصعة ، ويقصد بالبنين (طفيل - وعامر - وربيعة - وعبيدة الوضاح - ومعاوية) وكانوا فرسانا . وهم أربعة لأن ربيعة كان قد توفي .

(٤) الحدثن : وائب الدهر : يقول هل أحدثت ما يغسل العار عن أبيك ؟

(٥) من القين بن جسر من قضاة : يقول إنك ماجد من طرفي الأب والأم فلا ينبغي لمثلك السكوت على الضيم .

وقال كعب بن مالك :

لقد طارت شعاعا كل وجه خفارة ما أجار أبو براء

بنى أم البنين أما سمعتم	دعاء المستغيث مع المساء !
وتنويه الصريخ بلى ولكن	عرفتم أنه صدق اللقاء
فما صغرت عياب بني كلاب ^(١)	ولا القرطاء ^(٢) من ذم الوفاء
أعامر عامر السوآت قدما	فلا بالعقل فزت ولا بالثناء
أأخفرت النبي وكنت قدما	إلى السوآت تجري بالعراء
فلست كجار جار أبي دواد	ولا الأسدي جار أبي العلاء
ولكن عاركم داء قديم	وداء الغدر فاعلم شر داء

فحمل ربيعة بن عامر على عامر بن الطفيل وطعنه بالرمح فأصاب فخذه ،
ووثبت عصابة عامر على ربيعة فقال لهم عامر : (إن مت قدمي لعمي وإن
أعش فسأرى رأيي) .

وفي عام الوفود سنة ٩ من الهجرة ، بدأت القبائل ترسل الوفود معلنة دخولها
في الإسلام ، فقالت بنو عامر ، لعامر بن الطفيل : إن الناس قد أسلموا فأسلم
فقال : " والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع عقب
هذا الفتى من قريش " .

واتفقت بنو عامر على إرسال وفد منهم ، إلى المدينة وكان يرأس الوفد اثنان
من شياطينهم : عامر بن الطفيل وأربد بن قيس بن جزء وهو أخو الشاعر
لبيد بن ربيعة لأمه . واتفق عامر مع أربد على الغدر برسول الله ﷺ ، فقال
له " إني شاغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف " .

(١) قوم أبي براء من بني عامر .

(٢) قرط وقريط — بفتح القاف — وقريط — بضمها — من بني كلاب .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ، قال عامر : (يا محمد ، خالني) أي صاحبنني ويقصد الاتفاق . فقال صلوات الله وسلامه عليه : (لا والله حتى تؤمن بالله وحده) ثم أعاد الطلب ، فكرر رسول الله ﷺ الجواب .

وحينئذ قال عامر " (أُخِيرَكَ بَيْنَ ثَلَاثَ خِصَالٍ : يَكُونُ لَكَ أَهْلُ السَّهْلِ وَلِي أَهْلُ الْمَدْرِ ، أَوْ أَكُونَ خَلِيفَتَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، أَوْ أَغْزُوكَ بِغُطْفَانِ بِأَلْفِ أَشْقَرٍ وَأَلْفِ شَقْرَاءِ) .

فلما أبى رسول الله ﷺ . قال عامر (أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً) ثم انصرف ومن معه . فلما ولي قال صلوات الله وسلامه عليه (اللهم أكفني عامر بن الطفيل) .

وفي الطريق قال عامر لصاحبه أريد (ويحك يا أريد ، أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على وجه الأرض أخوف عندي على نفسي منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً) .

فقال أريد : (لا أبالك ، لا تعجل علي ، فوالله ما هممت بالذي أمرتني به إلا دخلت بيني وبين الرجل ، أفأضربك بالسيف !) وفي الطريق اشتكى عامر ورمأ في رقبتة فخرج أصحابه على بيت من سلول وتركوه هناك ، وعادوا فلما حضره الموت قال : (أعدة كغدة البعير ، وموت في بيت سلولية) يعني أنه لم يمت كما يموت الفرسان ، ولكن الموت أدركه عاجزاً عن الحركة ، غريباً عن قومه وفي بيت اشتهر باللؤم !

٤ - " لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتك "

في السنة العاشرة من الهجرة قدم وفد بني حنيفة إلى المدينة وفيهم مسيلمة بن ثمامة الكذاب ، وهو يستتر نفسه بالثياب ومعه خلق كثير ، وكان يقول لقومه: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته ! ودخل الوفد على رسول الله ﷺ وخلفوا مسيلمة في رحالهم ، وأخبروا رسول الله ﷺ بشأنه .

جاء مسيلمة بهذا الركب لا ليُسَلَّم في الواقع ولكن ليساوم الله عز وجل ورسوله على السلطة والحكم ! وكان يظن أنه يستطيع أن يحصل على النتيجة التي يرغبها باصطحابه هذا الجمع الغفير من قومه .

وأقبل ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يد رسول الله ﷺ قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة في رجال معه ، فقال مسيلمة : (إن شئت خليت بيننا وبين الأمر ثم جعلته لنا من بعدك!) فقال ﷺ : (لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتك ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإنني لا أراك الذي أريت فيه ما رأيت ، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني) . ثم انصرف ﷺ .

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سأل أبا هريرة عن قول رسول الله ﷺ : (وإنني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت) .

قال ابن عباس : (فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحى إليّ في المنام أن أنفخهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذا بين يخرجان من بعدي أحدهما العنسي والآخر مسيلمة .

وفي رواية (فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة) .

وانصرف وفد بني حنيفة ولم يلبث أن ادعى مسيلمة النبوة وأنه قد أشرك في الأمر . وكتب إلى رسول الله ﷺ يقول : (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد ، فإنني أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأمر ، ولقریش نصف الأمر ، ولكن قریشا قوم يعتدون) .

ودفعه إلى اثنين من رجاله فقدماه به إلى المدينة .

ولما قرئ الكتاب على رسول الله ﷺ قال للرجلين : (فما تقولان أنتما؟) قالوا: نقول كما قال ! فقال ﷺ : (أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما) ثم كتب إلى مسيلمة (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وكان ذلك في أواخر السنة العاشرة من الهجرة ، أي قبل وفاته صلوات الله وسلامه عليه بقليل .

وأخذ مسيلمة يحلل ويحرّم ويبتكر للناس ديناً من عندياته شأنه شأن أصحاب الدعاوى الشاذة : فوضع عن الناس الصلاة وأحل لهم الخمر والزنا والنهب والسلب .

وهو مع ادعائه هذا يشهد بالنبوة والرسالة لرسول الله ﷺ .

وفي هذه القصة من دلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه : —

١- إن نزول القرآن العظيم هو إعلان للعالمين بختم النبوات والرسالات الإلهية ، وقد فصل التنزيل الحكيم الشريعة الخاتمة وبيّن خصائصها لتكون لله عز وجل الحجة على الناس جميعاً ، فمن ضل فلا يلومن إلا نفسه . وأعلن رسول الله ﷺ للعالم أجمع كل ما يتعلق بالشريعة الخاتمة ، بما لا يدع أي مجال لريبة أو لشك بأنه لا نبي بعده .

وقد اجتمعت فيه صلوات الله وسلامه عليه النبوة الخاتمة ودلائلها وخصائصها وشرائطها ، فمن ادعى النبوة بعد هذا البيان المحمدي الخالد فهو كاذب ، ومن وقع في شراكه فهو ضال مضل ، ولو لم يخبرنا صلوات الله وسلامه عليه بأنه لا نبي بعده ، لكانت صفاته وخصاله وسيرته كافية في الدلالة على ذلك وكفي بالإعلام القرآني للعالمين برهانا .

٢- نص رسول الله ﷺ على خروج الكذابين ومنهم مسيلمة والأسود العنسي ، حتى يعلم الناس جميعا أن هناك من البشر من هو ساقط الكرامة إلى درجة ادعاء النبوة والافتراء على الله عز وجل ، بل ظهر منهم في القرن التاسع عشر والعشرين من ينفي الألوهية ويدعو إلى الاشتراكية العلمية^(١) المؤسسة على هذه العقيدة واتبعه أراذل العالم من الشعوب التي لا تفقه شيئا.

٣- نص صلوات الله وسلامه عليه على قتل مسيلمة قبل حدوثه .

٤- نص على فضل أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه — ضمنا — فهو ذلك الروح الذي نفخ مسيلمة وأطاره بإذن الله .

٥- تتضح الحكمة في قوله صلوات الله وسلامه عليه (وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني) ، مما يأتي : —

بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه سير أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة لقتال بني حنيفة ففشلا ، وحينئذ سير خالد بن الوليد لقتالهم ، فالتقى معهم في وقعة — عقرباء — وكان قيس ابن ثابت صاحب لواء الأنصار والانتصار .

^(١) وقد نص الميثاق الناصري في الباب السادس على الإيمان بالاشتراكية العلمية واتخاذها طريقا للحياة !!

روى البخاري مختصراً والطبراني مطولاً عن أنس أن ثابت بن قيس لما انكشف الناس يوم اليمامة قال : (ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ، بنس ماعودتم أفرانكم . الله إنني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ومما صنع هؤلاء) ثم قاتل حتى استشهد ، وهذا هو الجواب الخالد الذي رد به ثابت على مسيلمة الكذاب .

ومن نظر إلى حال أصحاب الدعاوى الباطلة عرفهم بسيماهم وأخلاقهم وأفعاله وسلوكهم ، وعلاقاتهم بغيرهم ، فما بالك بمن انحط إلى الدرك الأسفل في التضليل والتزوير ! فلا أبشع ولا أخط ممن يكذب على الله تعالى . ومن ألقى نظرة عابرة على هؤلاء وأمثالهم لم تخف عليه صفاتهم وعلاماتهم ومنها:—

١- أن الدعاوى تكون صادرة عن سبب لا يمت بصلة إلى ما يليق بكملات الله عز وجل ولا إلى المصلحة العامة للبشر : ففي حالة مسيلمة : نجد أن بني حنيفة ينتمون إلى ربيعة ، ولما رأى هؤلاء أن نسب رسول الله ﷺ ينتمي إلى قريش ثم إلى مضر ، حقدوا على قريش خاصة وعلى مضر عامة لما بينهم من تنافس واعتقدوا أنهم لا يستطيعون أن يضاهوا مضر في المكانة والمنزلة إلا إذا كانت فيهم النبوة فادعوها ، وبهذا الإدعاء قامت عليهم الحجة ، لأنهم يريدون أن يعلموا الله عز وجل أي يضع رسالته !

وبهذه النظرة العصبية الضيقة ضلوا عن تعاليم الإسلام ، إذ ليس في الإسلام مضري وربعي ويمني الخ بل هناك مؤمن ومنافق وكافر ، أما المؤمنون فأكرمهم عند الله أتقاهم ، فسلطان مع أنه فارسي نص الحديث على أنه من أهل البيت .

والإسلام شريعة الله الشاملة للعالمين وهو ليس بحكر لمخلوق حتى ينفس إنسان على آخر تميزه عنه بالإسلام ، فجميع الناس سواء في الإسلام ، لا فرق بين جنس وجنس ، أو لون ولون ، أو نسب ونسب ، ولا فضل إلى في العمل بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه وكل مؤمن قلعة من قلاع الإسلام فلا يؤتين الدين من قبله .

فالدافع إذن لادعاء مسيلمة النبوة هو الدافع القبلي ، ولم يكن هذا خافيا على أتباعه ، فقد روى الطبري عن زعيم من بني حنيفة أنه كان يقول (أشهد أن مسيلمة كذاب وأن محمدا صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر !) فالحقد يورث أخط الصفات وأدناها ، ويصرف الإنسان عن وجه الحق إلى الباطل على علم بذلك ومعرفة به ، ونحن نصادف في حياتنا اليومية كثيرا من الأمثلة الشاهدة على ما يفعله الحقد وما يتركه من آثار سيئة في النفوس حتى إن الشخص ليعلم تمام العلم أن الحق مع غريمه ولكنه ينصرف عنه حقدا وعنادا ، وكراهية واستكبارا .

٢- وإن الذي يدعي النبوة كذبا تنقطع صلته بالله عز وجل ، وفي نفس الوقت يدعي أمام الناس أنه في جميع أحواله إنما يتبع الوحي ، ومعنى ذلك أنه سيكذب ثم يكذب ثم يكذب حتى يتناول الكذب جميع شئونه ، وكل شيء يقوله أو يفعله ، وهذا وجه من وجوه الحكمة في إطلاق الكذب على مسيلمة دون باقي الصفات .

٣- ومن هنا تصبح لهذا المدعي صفات نفسية خاصة يتميز ويعرف بها : كالجهل ، واتباع الهوى واللؤم ، والأنانية ، والتمسك بالمصالح الذاتية دون سواها والتبرير والإسقاط الخ

٤- ولما كانت الدعوى كاذبة لا أساس لها فإن صاحبها يتميز بالاضطراب في القول والفعل والتناقض فيما يصدر عنه ، وكان أتباع مسيلمة كلما كشفوا عن ذلك يقول لهم بدا كذا وبدا كذا . وعقيدة البداء كفر لأن الذي يغير ويبدل فيما يأمر به وينهى عنه كلما بدا له ما هو أفضل ليس بإله . بل مخلوق ضال مضل لا يثبت على شيء .

٥- الأمر بالمنكر وإباحة ما يؤدي إلى فساد الإنسان والمجتمع البشري وقد أباح مسيلمة الزنا والخمر وهتك الأعراض والسلب والقتل .

٦- النهي عن المعروف أو سلوك السبل التي تؤدي إلى انقطاعه .

٧- قطع صلة الإنسان بالله عز وجل ولذا كان أهم أوامر مسيلمة إبطال الصلاة.

٨- طلب الدنيا والتدني في طلبها بأخس الطرق ، فالمنفعة أو الغاية تبرر الوسيلة . ولذا نجد أن أصحاب الأيديولوجيات الدنيوية ينتهي بهم الأمر إلى سلوك كل ضلالة تؤيد ما يعتقونه .

٩- اتباع أحقر القيم وأخسها في السلوك والمعاملات والعلاقات .

١٠- ترك الناس على هواهم : فكان مسيلمة يحلل ويحرم ما يطلبه أبتاعه منه.

١١- وضع الدعوى موضع المساومة كمساومته مع سجاح وقد ادعت النبوة مثله !

١٢- وهناك أمر يحتملها هذا الإدعاء الكاذب وهي لا تخفى على من له عقل ومنها :

• الجهل بكمالات الخالق سبحانه وما يليق به عز وجل من الأسماء والصفات .

• الجهل بعبادة الله عز وجل ومراتبها .

• الجهل بالنبوة وكمالاتها .

• الجهل بالحق ، والخير ، والقيم الصالحة المفضية لسعادة البشر .

• والجهل بما يصلح به الفرد والمجتمع الخ

وإن أية دعوى عالمية بعد دعوة الرسالة الإلهية العامة فهي باطلة شكلا وموضوعا ، لفظا ومعنى ، فرعا وأصلا ، قلبا وقالبا ، نصا وروحا ، ولا يمكن لمخلوق كائننا ما كان أن يدعي أنه قد توافرت فيه الشروط العلمية التي تقتضيها الدعوة العامة للعالمين ، بعد أن نص إمام المرسلين بقوله (لا نبي بعدي) وأي دعوة تصلح لبشر بعد النبوة الجامعة والرسالة الشاملة العامة التي فصلت للناس كل شيء ! وإن الوقائع كفيلة بتنفيذ جميع الدعاوى الصادرة عن الفلاسفة وغيرهم ممن حاولوا وضع نظم إنسانية عالمية ، وإذا بالنظم التي وضعوها تتطبق عليها جميع الشروط التي تتطبق على مسيلمة وأضرابه . ولم تكن سوى محاولات للهروب من الله عز وجل إلى أديان وضعية من عنديات المفكرين . فإذا ما بحثوا في حقيقة هذه الأديان الوضعية التي هربوا إليها لم يجدوا شيئا ، ووجدوا الحق الذي يدمغ باطلهم ، والأدلة التي تهيب بهم : إن آمنوا بالرسالة المحمدية الخالدة . آمنوا بهذا النور الساطع والحجة البالغة فلم تبق في الوجود حقيقة دقت أو جلت إلا وهي منطوية في الكتاب العزيز والسنة المكرمة وماعدا ذلك فهو باطل صراح ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١ - وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ٨٢ - ﴾ سورة الإسراء — ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ . وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨ ﴾ سورة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

٥- " إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم "

كانت هوازن من أقوى قبائل قيس عيلان ، ومن أقوى قبائل هوازن ثقيف وكانت تسكن منطقة الطائف وهي أخصب الجهات الداخلية في شبه الجزيرة العربية ، وقد هيا هذا الخصب لتقيف ، ما يشبه الاكتفاء الذاتي ، وقد عرف الثقيفون ما اختصوا به من مميزات اقتصادية فاستماتوا في الدفاع عن منطقتهم ، ولما كانوا محط أنظار القبائل المجاورة لثرائهم فإن اصطدامهم المستمر بالغزاة والطامعين جعلهم من أشد القبائل بأسا .

ولعل هذا الوضع هو السبب في امتيازهم من الناحية الدينية ، إذا كانوا يتمتعون بمركز يلي مركز قريش الديني ، فكانت عندهم بالطائف أشهر آلهة العرب بعد آلهة مكة وهي اللات ويسمونها الطاغية ، وقد يكون هذا اللقب مستمد من طبيعة ثقيف نفسها ، واللات عبارة عن صخرة مربعة ، بنوا عليها بناءً يضاهون به الكعبة ، وكانت قريش و جميع العرب يعظمونها ، ويكسونها كما يكسون الكعبة ، ويحرمون واديها وكانت سدانتها في آل أبي العاصي من بني عتاب بن مالك .

وارتبطت ثقيف بقريش عن طريق المصاهرة و الحلف ، وكان أشد بيوت قريش ارتباطا بثقيف من ناحية النسب : البيت العشمي فكانت سبيعة بنت عبد شمس عند مسعود بن معتب بن مالك وأختها رقية عند أبي الصلت بن ربيعة من بني عقدة من ثقيف وهي أم الشاعر أمية بن أبي الصلت. وكانت كنود بنت عبد أمية بن عبد شمس عند حبيب بن عمرو بن عمير من بني عقدة أيضا وهي أم الفارس أبي محجن . وعمرو بن عمير هو الذي قال فيه الوليد بن المغيرة معترضا على نزول القرآن العظيم على رسول الله ﷺ (أينزل على محمد و أترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقيفي سيد ثقيف ونحن عظيمي القريتين !!) كبرت كلمة تخرج من

أفواههم. وكانت صفية بنت أمية بن عبد شمس عند أبي العاص بن بشير وأختها أميمة بنت أمية بن عبد شمس عند عمرو بن وهب الثقفي ، وريحانة بنت أبي العاص بن أمية عند عثمان بن أبي العاص بن بشير الثقفي . وتزوج حرب بن أمية بن عبد شمس فاخته بنت عامر بن متعب فولدت له أم جميل زوجة أبي لهب . وكان أبو سفيان بن حرب كثيراً ما يتردد على الطائف للوشائج التي تربطه بتقيف : فكانت ابنته ميمونة عند أبي مرة بن معتب ، وأختها أم الحكم عند عبدالله بن عثمان الثقفي ، وآمنة عند عروة بن مسعود الثقفي .

وممن حضر مولد رسول الله ﷺ من نساء تقيف فاطمة بنت عبدالله قالت (رأيت البيت حين وُضع امتلاً نورا)

ولصلة النسب بين بني عبد شمس من قريش وبين تقيف وخاصة بني معتب تمكن بعض العبشميين مثل عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس من اقتناء البساتين في الطائف ، وكان بنو معتب وبنو عبد شمس يترددون بين مكة والطائف نظرا للصلات التي تربطهم .

وكانت تقيف من القبائل التي عرض رسول الله ﷺ عليها الإسلام فردته رداً مؤلماً عنيفاً . ففي ليال بقين من شوال سنة عشر من النبوة ، بعد وفاة أبي طالب ، خرج رسول الله ﷺ من مكة ليعرض نفسه على القبائل وقد اصطحب معه زيد بن حارثة ، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من تقيف وهم يومئذ ساداتها وأشرفها وهم : عبد ياليل بن عبد كلال ومسعود وحبيب ابنا عمرو بن عمير بن عوف ، وكان حبيب مصاهراً للبيت العبشمي ، وأحد الرجلين الآخرين مصاهراً لبني جمح ، فلما كلمهم رسول الله ﷺ قال أحدهم: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! وكأنه يعرف الله عز وجل على من ينزل

القرآن العظيم ! وقال آخر " والله لا أكلّمك أبدا : لو كنت رسولا من الله كما تقول لأنّك أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلّمك . "

ومكث رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الله عز وجل عشرة أيام ، ولم يدع شريفا فيهم إلا وبلغه الدعوة ، حتى طلبوا منه أن يخرج عنهم ، وقد لقي من أذاهم ما لقي من قومه ، ولما انصرف ﷺ راجعا إلى مكة أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يؤذونه بالقول والفعل ، وجلسوا له في صفين على طريقه فكان لا يرفع ﷺ قدميه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة فكان إذا أدلّفته الحجارة ، وبلغ منه الجهد جلس إلى الأرض ، فإذا استراح سار فيستأنفون الإيذاء وكان زيد بن حارثة يقيه بجسمه حتى شج رأسه ، حتى إذا بلغ رسول الله ﷺ حائط بستان جلس يستظل بظله وهو يقول (اللهم ^(١) إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت أرحم بي من أن تكلني إلى عدو يتجهمني أو إلى قريب ملكته أمري ، إن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك ، ولك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك) .

شهد صاحبا البستان ما حدث ، وكانا من قریش ، وهما عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وكيفا يقال أنهما لم يعطيا القرابة حقها — وكان الواجب أن يتدخل في الأمر — اكتفيا بإرسال غلامهما عداس بطبق فيه قطف من عنب إلى رسول الله ﷺ .

(١) أخرجه الطبراني عن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما . ويسمى دعاء الطائف .

فلما جاء وسمع كلام رسول الله ﷺ قال (والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد !) فسأله صلوات الله وسلامه عليه (ومن أي البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟) فأجاب بأنه نصراني من أهل نينوى . فقال ﷺ (من أهل قرية الرجل الصالح يونس بن متي) فبهت عداس وقال (وما يدريك ما يونس بن متي ؟) فقال ﷺ (ذلك أخي كان نبيا وأنا نبي) فسقط عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه . وجاء في السيرة لسليمان التيمي أنه قال : أشهد^(١) أنك عبدالله ورسوله .

وكان عروة بن مسعود من وجهاء ثقف ، رحل إلى فارس والروم والحبشة ، مما أكسبه خبرة واسعة وتجربة وحكمة وإطلاعا على أحوال المجتمعات المتباينة ، وكان محبوبا في قومه ، محبا لهم ، لا يسعى إلا في إصلاح ذات بينهم ، عدي المغيرة بن شعبة — من بني معتب ذات يوم على جماعة من بني مالك فقتلهم ، وكان ذلك قبل إسلام المغيرة ، فتهايج بنو مالك وبنو معتب رهط المغيرة ، وأوشكت الحرب أن تنشب بين قبائل هوازن كلها ، فتدخل عروة وتمكن من تسوية الدم ، وغرم دية جميع من قتلهم قريبه — المغيرة — . وكان عروة لصلة القرابة بينه وبين قريش كثير التردد على مكة ، وكان القرشيون يحبونه ، فكان محلا لتقتهم ، ولما سمع بقدم المسلمين عام الحديبية قدم مكة معضدا لقريش ، وقد وجد القرشيين في هرج ومرج يتحرشون بالمسلمين ويصدونهم عن البيت الحرام .

(١) ذكر الواقدي في قصة بدر عن حكيم بن حزام ، أن عداسا حين خرج عتبة وشيبة أبنا ربيعة إلى بدر أخذ بأرجلهم يقول : بأبي وأمي أنتما ، والله إنه لرسول الله ، وما تساقان إلا إلى مصارعكما . ومر به العاص بن شيبة فوجده يبكي ، فسأله عن سبب بكائه ، فقال (يبكي سيدي وسيدا هذا الوادي يخرجان فيقاتلان رسول الله) فقال له العاص : إنه لرسول الله ؟ فانستفض عداس واقشعر جلده وقال (إي والله إنه لرسول الله إلى الناس كافة) وذكر الواقدي من وجه آخر ، أنه نهاما عن الخروج وهما بمكة فخالفاه .

ولم يكن من حق قريش أن تمنع أحداً من زيارة البيت بل كان عكس ذلك هو الواجب عليها ، وهو ما يقتضيه وضعها بين القبائل العربية ومكانتها الدينية ، وأكد ما يكون ذلك في الأشهر الحرم ، إلا أنها خشيت إن هي أذنت للمسلمين بدخول مكة أن يفرض عليهم تيسير الزيارة للمسلمين كل عام ولا يخفى على قريش أن البيت الحرام هو قبلة المسلمين ولن يتركوا قريشا وشأنهم بالبيت ، بل لابد من أنهم سيظهرونه من الأصنام ، فهذه الزيارة في نظر قريش إذا تم لابد وأن تؤدي إلى تهديد مكانة المشركين الدينية ، وإلى إزالة آلهتهم من الوجود ، وهي نذير بانتشار الإسلام ، هذا بالإضافة إلى ما فيها من الكسب السياسي .

لذا أرسلت قريش مندوبيها إلى المسلمين بقصد استئثارهم ، ولكنهم كانوا بعد مقابلتهم لرسول الله ﷺ ، يتهمون قريشا بصد الناس عن زيارة البيت ، وهذا مالا تملكه ، فهي تقف موقف الظالم المتعدي ، وكان زعماء قريش يفهمون ذلك تمام الفهم ، ويخشون أن يفوت عليهم مندوبوهم الهدف الذي كانوا يسعون للوصول إليه ، ويخشون أيضا أن يشاع ويذاع على لسان مندوبهم أنهم يصدون عن البيت الحرام ، فيتخرج موقفهم إزاء العرب جميعا ، لذا كانوا يستقبلون مندوبيهم بالسباب والتوبيخ لعدم فهمهم وجهلهم بقصد قريش .

ولما رأى عروة هذا قال (يا معشر قريش إنني قد رأيت ما يلقي من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد ، وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتم حتى أسيتكم بنفسي) .

قال (صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم) ووافقوا على ندب عروة لمحادثة المسلمين نيابة عن قريش . فخرج عروة حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ، وكان الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه يجلس خلف رسول الله ﷺ ، والمغيرة بن شعبة يقف إلى جواره لابسا لامته .

فقال عروة مهديا (يا محمد ، جمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك — أي بلدك — لتفضيها بهم . إنها قريش ! قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر ، يعاهدون الله لا ندخلها عليهم عنوة أبدا ، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا) .

فرد عليه الصديق رداً قاسياً وبأنهم لن ينكشفوا عنه . فقال عروة (من هذا يا محمد ؟) فقال ﷺ (هذا ابن أبي قحافة) . فقال عروة (أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ولكن هذه بها) .

وكان أثناء الحديث يمد يده إل لحية رسول الله ﷺ ليُمسكها وهو يكلمه ، فيقرع المغيرة يده ويقول (أكف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك) . فقال عروة للمغيرة (ويحك ما أفظك وما أغظك) ولم يعرف عروة قريبه إذ كان لباسه الحربي يستتره فتبسم رسول الله ﷺ . فقال عروة (من هذا يا محمد ؟) فقال ﷺ (هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة) . فعجب عروة لجرأة المغيرة عليه وهو عم والده ، وعجب كيف يتنكر له المغيرة في هذا الموقف الذي كان ينتظر فيه أن يحمى لقرابته ، وأن يسكت عنه على الأقل ، فقال (أي غدر ! وهل غسلت سوائك بالأمس) يشير إلى الديات التي غرمها فيمن قتلهم المغيرة قبل إسلامه . ولو علم عروة ما هو الإيمان لما عجب من ذلك ، بل إن عروة نفسه سيسعى فيما بعد إلى الشهادة في سبيل الله تعالى طائعا مختارا ، جذلا مسرورا .

أَفَحِمَ عُرْوَةَ ، ولم يجد ما يجيب به رسول الله ﷺ ، إذ لا يصح قتال من جاء لزيارة البيت مجال ، وكان عروة يظن أنه سيجلس مجلسا يتنازع فيه القوم الكلام ، ويعلو فيه الجدل والصخب ، فوجد غير ما ظن وغير ما اعتاد ، وجد مجلسا لم يره في حياته ، في الكمال وحسن السمات وأدب الحديث ، مجلس يُجْبَرُ المتحدث على تجنب اللغو ، وإذا ما تجاوز حدوده وجد من يرده إلى الموضوع الذي جاء من أجله ليتكلم فيه رأساً .

وعاد إلى قريش والدهشة تملكه من فرط ما رآه من حب الصحب لرسول الله ﷺ ، وتفانيهم في طاعته ، والطاعة هنا غيرها في أي مجتمع آخر ، الطاعة هنا ذاتية مقترنة بالحب العميق والولاء والإخلاص والصدق والاحترام، بينما هي في المجتمعات الأخرى تكون مفروضة من الخارج ، فهي طاعة تفرضها القرابة أو القوة ؛ أو الجاه أو السلطان . كما دهش عروة حين شهد استعداد المسلمين للصلاة وهذا شيء لم يألّفه ولم يره في حياته .

ولما جاء مجلس قريش وكان ينتظره قال (يا معشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكه ، وقيصري في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً قروا رأيكم) .

ولم يشأ عروة أن يعرض نفسه لسخط قريش خشية أن يجبهوه بما جبّوها به رسلهم من قبل ، واكتفى بالتلويح إلى الاتفاق مع المسلمين بدلا من الاختلاف معهم .

ولما وجدت قريش أن خطة الاستفزاز قد فشلت جنحت إلى المسالمة وانتهت القضية بينهم وبين المسلمين بصلح الحديبية .

وبدأت هوازن وقبائلها ومن بينها تقيف تدخل في صراع مع المسلمين ، حين وثب عامر بن الطفيل على وفد بئر معونة في السنة الرابعة من الهجرة وقتلهم جميعا، وكان عامر يتطلع لا إلى زعامة بني عامر بن صعصعة بل إلى زعامة هوازن كلها ، وقد ورط هوازن بفعلته هذه في حرب مع المسلمين .

وفي شعبان سنة سبع من الهجرة أرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب إلى تربة وتسكنها مؤخرة هوازن وهي على مسيرة يومين من مكة ، فهرب أهلها ولم يلق منهم أحدا وعاد إلى المدينة . وفي ربيع الأول سنة ثمان توجهت سرية بقيادة عامر بن وهب الأسدي إلى بني عامر فلقية جمع من هوازن فانتصر عليهم .

ثم اتفقت كلمة هوازن وتقيف على إعداد العدة للقضاء على المسلمين واستنقر الرأي على جمع المؤن من الطائف استعدادا لما عساه يحدث ، فقد يحصرها المسلمون إذا نشبت الحرب . وفي نفس الوقت قرروا إرسال بعث إلى اليمن ليتعلم صناعة الدبابات^(١) والمجانيق^(٢) والضبور^(٣) لاستخدامها في الهجوم على المدينة قلعة المسلمين . وانتدبوا لهذه المهمة اثنان من أشرف تقيف عروة بن مسعود ، وغيلان بن سلمة بن معتب ، فوصلا إلى جرش باليمن حيث تصنع هذه الآلات .

(١) أشبه بحجرة مصفحة تصنع من الخشب وتغشى بدرع واقى من الجلد أو غيره ولا أرضيه لها وتسير على عجلات ، ولها باب يدخل فيه العدد الذي تسعه من المقاتلين الذي يسيرونها بالدفع من الداخل حتى تصل إلى العدو .

(٢) آلة من آلات الحصار لرمي الأحجار الثقيلة .

(٣) تشبه الدبابات وبها أدوات لنقب الحصون .

وفي خلال إقامتها باليمن بلغتها أخبار هزت الجزيرة العربية كلها ، فقد فتح المسلمون مكة في رمضان سنة ثمان للهجرة ، وتهافت أصنام العرب تهافت الذباب منها :

هبل : وكان في جوف الكعبة على البئر التي يجمعون فيها ما يهدى إلى الكعبة وكان عند سادنه سبعة أزلام يستقسمون بها ، هذا عدا ثلاثمائة وستين صنما حول الكعبة .

العزى : وهي وثن بنحلة تعظمه العرب وقد هدمه خالد بن الوليد وقطع شجرة عنده كانوا يعظمونها !

مناة : كانت بسيف البحر ويعبدها الأزد وقد هدمها سعد بن زيد .

سواع : كانت في واد من مكة يقال له : وادي نعمان من بلاد هذيل وقد هدمها عمرو بن العاص .

ولم يبق شرق مكة سوى اللات صنم تقيف . ولقد فعلت البعوث التي أرسلها رسول الله ﷺ لتحطيم الأصنام المشهورة لدى العرب أكثر مما تفعله الجحافل والجيوش في نفوس العرب ، فقد كانت هذه الأوكار هي المتكأ الذي تتوكأ عليه عقيدة الشرك ، ولقد ترك تحطيمها العرب — الذين لم يدخلوا بعد في الإسلام — في فراغ ديني يعيشون فيه بلا نظام ، وكان محركا يدفعهم إلى التفكير الجدي في تفاهة هذه الأصنام ، مما قادهم إلى معرفة ضلالهم والدخول في الإسلام . وقد تم تحطيم الأصنام بسرعة فائقة حتى تنهار عقيدة الشرك من أساسها .

بلغت هذه الأنبياء عروة وصاحبه وهما يتعلمان صناعة آلات الحرب لقتال المسلمين ! وكان عروة يخشى أن يفضي بما يساوره لصاحبه غيلان خشية ألا يوافقاه أو لا يتجاوب معه في شعوره . لقد هدمت الطواغيت التي تحجب الناس عن خالقهم . هذه الطواغيت التي ينحتها البشر بأيديهم ثم يخطون لها حرماً آمناً ، ليتقدموا إليها بالقرابين كي تحميهم أو تقربهم من خالقهم ! وأيهما أقرب إلى الخالق : الحجر الذي ينحته الإنسان بيده أم الذي نحت الحجر ! وهاهي الأحجار تملأ الجبال ولا تبدي حراكاً ، ولا ترد عدواناً . إنها لا تدفع شراً ولا تجلب نفعاً ، إنها جماد مسخر للإنسان : وي ما أتعس الإنسان إذا ما ابتعد عن الرسائل الإلهية ، ما أنفقه ، ما أحقره ، وهو نفسه يعترف بهذه الحقارة حين يقدس الحجر ويرفعه إلى مرتبة أعلى من مرتبته ، من مرتبة الإنسان ! لقد بقيت الطاغية بعد هذا كله ! فهل ستدفع المسلمين عن تقيف ، وكيف يثق أحد بها بعد انهيار أصنام كانت أقوى مكانة منها لدى المشركين ؟ هبل مثلاً !

إن حديث رسول الله ﷺ وهو يدعو تقيفاً للدخول في الإسلام — قبل الهجرة — لا يزال يملأ نفس عروة . وإن لقاءه مع رسول الله ﷺ في الحديبية لا يزال ماثلاً أمام ناظريه : وكان رسول الله ﷺ يومئذ قادراً على رد الإساءة بمثلها ، وكان قادراً على الانتقام من عروة لفظاظته وغلظته في خطابه ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه كان يستمع إلى تهديد عروة ووعيده بوجه يطفح بشراً ، بوجه يسمع منه نداء الإيمان بالله عز وجل يملأ الأرض كلها . أما أن لك أن تؤمن يا عروة ؟ وحتى متى هذا الضلال !

وإذا برجل من هوازن قد أقبل عليهما فسألاه بلهفة عما وراءه ، فأخبرهما أنه لم يستطع دخول الطائف لحصار المسلمين لها ! كما أخبرهما بهزيمة هوازن

وتقيف في وقعة حنين . ولم يكن هناك ثمة داع للبقاء بعد هذا . فحزَم
الرجلان متاعهما وكرا راجعين إلى الطائف . وفي خلال عودتهما كان
المسلمون قد رفعوا الحصار عن الطائف لدخول شهر ذي القعدة وهو من
الأشهر الحرم . ووصلتها الأخبار بأن هوازن قد أرسلت وفدا أعلن إسلامها .
بل إن قائد المشركين يوم حنين مالك بن عوف النصري قد دخل في الإسلام .
واهاً لك يا عروة أين ما عُرِفَتْ به من سداد الرأي والحكمة ؟!

عاد عروة فوجد الأمور قد تغيرت عن حالتها الأولى : فقد أسلمت هوازن بل
وأسلم آل عوف النصريون سدنة (جهار) صنم هوازن ، وأين جهار هذا ؟ لقد
هدم بعكاظ ! إذن لقد أسلمت هوازن وبقيت تقيف في الضلالة العمياء تعتصم
بالطائف . وعزم عروة على أمر لم تعلمه تقيف .

كان من عادة عروة أنه إذا ما جاء من سفر أن يبدأ بالطاغية فيزورها ويقدم
المال لسادنها ، إلا إنه لم يفعل هذه المرة ، فقد أصبح لا يطبق النظر إلى هذا
الصنم الأخرس الذي لا صلاح لقومه مع وجوده ، وحز في نفسه أن تتحرر
بقية هوازن من أصنامها بينما تستمر تقيف أسيرة اللات ! ومما زاده ضيقا :
هذه الادعاءات التي ينشرها سدنة اللات : فبعضهم يسند إليها أنها كانت تدفع
المسلمين بنفسها ! وآخرون يقولون إنهم رأوها وهي تحرس حصون الطائف !
وكلما كثرت هذه الدعاوى كلما أمطرها المعتقدون بوابل من القرابين والأموال
كي ترضى عنهم ! يا ويل تقيف ثم يا ويلها ! إنها تشاقق الله ورسوله من أجل
صنم ! إنها لمهزلة دونها كل مهزلة .

أصبح عروة وقد طار نومه طول ليلته من شدة ما يعانیه ، وأخذ يتجهز
للرحيل ، وغادر الطائف وقد حسبه قومه أنه سيزور كعادته أخواله بمكة ، إلا

أن عروة خرج مقتنيا أثر رسول الله ﷺ وأخذ في السير حتى لحق المسلمين قبل بلوغ المدينة ، وأعلن إسلامه ، واستأذن رسول الله ﷺ أن يعود إلى قومه فيدعوهم إلى دين الله تعالى ويخلصهم من عبادة الطاغية ومن ظلمات الشرك . فقال له رسول الله ﷺ : (إنهم قاتلوك) . فقال عروة (يا رسول الله أنا أحب إليهم من أكارهم) ! قالها عروة مؤمنا ومتعجبا من حصول ذلك منهم .

لم يجرب عروة بعد العداوة التي يتعرض لها كل من دعا إلى حقيقة جديدة ، فما بالك بمن يدعو إلى حقيقة الحقائق ألا وهي الإيمان بالله تعالى . إن أعز شيء لدى الناس هو عقيدتهم باطلا كانت أم حقا — وفي سبيل الاحتفاظ بها يضحون بكل شيء ولو بمثل عروة الذي يحبونه حبا جما — إلا أن عروة وقد ذاق السعادة الشاملة التي غمرته منذ وجد حلاوة الإيمان وانسلت من قلبه عقيدة الشرك القاتلة ، عز عليه أن يسعد هو ويشقى قومه . والقلب الكبير والإيمان الصحيح متلازمان لا يفترقان : فالإيمان السليم يفسح القلب حتى إنه ليشمل الموجودات بأسرها حتى إن هداية رجل لهي عند المؤمن خير من حمر النعم . فطبيعة الإيمان تدفع المؤمن إلى إنقاذ الناس من الهلاك ، وإلى حب الخير لهم ، وإن مجامع الخيرات كلها يشملها الإيمان بالله ورسوله .

وقد وضّح صلوات وسلامه عليه الخطر الذي يتعرض له ليكون عروة على بصيرة من أمره ، وترك رسول الله ﷺ لعروة أن يقرر ما إذا كان في مكنته مواجهة الابتلاء الذي سيتعرض له أم لا فإن شاء ذهب واستشهد ، وإن شاء انتظر حتى تنتهيأ تقيف للإسلام بعد أن هيا لها رسول الله ﷺ أسباب الدخول فيه ، فتعجل عروة الشهادة وقرر المسير إلى قومه ، مع علمه بما سيلقاه منهم . إنه يريد أن يؤدي واجبه نحو قومه وليصنعوا به ما بدا لهم .

عاد عروة إلى الطائف وهو في هذه المرة يتفجر الإيمان من قلبه ، عاد وهو يشعر بأنوار الحق تغمره من جميع جهاته وتسطع في جميع أركان وجوده ، عاد ليعلن إيمانه بخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ، ويدعو قومه ليؤمنوا به .

رأى عروة من قومه ما لم ير ، وسمع منهم ما لم يكن ينتظر ، فهزأوا منه وسخروا به ، واستتصروا بالطاغية عليه ! ألم يكن هو نفسه الذي كانوا يحتكمون إليه في قضاياهم ، ويستشيرونه في حل مشاكلهم ، ويأتونه في ملوماتهم ، ويأمنونه على دمائهم وأموالهم وأنفسهم ، لقد كان عندهم — كما قال: — أحب إليهم من أبنائهم فإلى أين ذهب هذا الحب ؟

الحب نوعان لا غير : حب ماسوني — وحب الله عز وجل — أما الحب الأول فهو حب الهوى ، يصلح للتحول إلى الكراهية في أي درجة من درجاته ، بل وقد يكون مصدرا للعدوان والظلم ، ذلك لأن مصدر هذا الحب إنما هو حب الذات^(١) ، فإذا ما تصادم مع مصلحة الذات انقلب إلى ضده ، فيقاطع الإنسان من أحب بل وقد يقتله لسبب تافه ! ولو اختبرنا هذا الحب لوجدناه مفقودا في الواقع ، ولوجدنا مكانه جملة من العواطف أطلق عليها لفظ الحب ، إنه حب فان لأنه متعلق بما يفنى .

أما الحب الأخير : حب الله عز وجل : فهو حب خالد باق لا يفنى ولا يزول ولا يتحول. هو الحب الجامع لجميع درجات الحب ، والذي يحب الله عز وجل ، لا يحب شيئا إلا لحب الله تعالى لهذا الشيء . ولكن أنى له العلم

(١) ما من صنم عبد من دون الله أشد من الهوى وقد تفشت هذه العبادة في عصرنا هذا ومعها الأخلاق المدمرة وانتشار الفساد في البر والبحر وتعلق أهل الهوى بما سواه تعالى في غياب متابعتة ﷻ .

بأن الله يحب هذا الشيء ؟ لا يمكن لمخلوق أن يبلغ الدرجة الشاملة في الحب في الله إلا إذا تحقق بمتابعة رسول الله ﷺ ، فهو صلوات الله وسلامه عليه الذي جاء مفصلاً ومبيناً لكلام الله عز وجل ، وقد فصل للعالمين مراتب حب الله سبحانه وتعالى ، فلا يمكن أن يلج إنسان الباب الصحيح لحب الله تعالى إلا عن طريقه ﷺ . وهذا الاختصاص يحتم أن يكون صلوات الله وسلامه عليه أحب إلى المؤمن من نفسه وولده وماله والناس أجمعين ، فهو أولى الخلق بحب الخلق له في الله عز وجل وتمام المتابعة يقتضي أن يكون حباً لله وفي الله وكل ما يخطر على بال المرء كذلك : هذا هو الباب الوحيد للتخلق بمكارم الأخلاق المتدفقة من شعب الإيمان .

لا عجب إذن إن ينقلب قوم عروة بالرغم من هذا الحب الذي يكونه له ، لأنه حب موهوم متخيل . وكانوا كلما ازدادوا عناداً له ، ازداد صلابته في دين الله عز وجل . وأخيراً قرر أمراً لا يفعله إلا مثله .

قام في الفجر وارتقى بيته وصعد على سطحه ثم أذن للصلاة : فهاج الناس وماجوا وتجمهروا حول منزله يسبونه في هذا الوقت المبكر ، وقذفوه بالأحجار ، ثم رماه رجل منهم بسهم فأصاب منه مقتلاً فخر مضرجاً بدمائه . ولعل عروة كان أحب إلى هذا الرجل من أبكاره! وما أشبهه بحب بروتوس لقيصر!

وسعى بنو معتب — وهم عصبته — إليه وسألوه (ماذا ترى في دمك ؟) .

فقال عروة (كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلي فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم فادفنوني معهم) .
نفسى فدى للمؤمن الحق: إنه كريم في حياته كريم عند موته أو شهادته .

وكيف لا يكون كريما وقد تعلق بواهب الوجود ، واتبع من أرسله الله إلى الناس كافة رحمة للعالمين ؟ حقا إن مثل عروة كمثل صاحب ياسين في قومه يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار .

أحدث استشهاد عروة بهذه الطريقة رد فعل شديد في تقيف ، وأثار الاشمئزاز في نفوس حكمائهم ، فلماذا يقتل عروة ؟ لماذا يُقتل من يدعو الناس إلى الإيمان بالله عز وجل ؟ وأقسم أبو مليح بن عروة بن مسعود وابن عمه قارب بن الأسود بن مسعود ألا تجمعهما تقيف أبدا ورحلا إلى المدينة وأسلما .

وبعد عام من فتح مكة ، وجد النقييون أن العرب تدخل في دين الله أفواجا ، وقد أسلمت القبائل المحيطة بهم ، وهامو قائدهم يوم حنين مالك بن عوف النصري لا يدعهم في راحة أبدا ويصليهم الكرة بعد الكرة . واجتمع زعماء تقيف وتشاوروا في الخطة التي يجب عليهم أن يسلكوها ، فرأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب الذين دخلوا في الإسلام ، وأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا رجلا إلى المدينة ينوب عن تقيف في مفاوضة رسول الله ﷺ . فكلّموا في ذلك عبد ياليل بن عمرو ، ولكنه أبى أن يفعل خشية أن يصنعوا به ما صنعوا بعروة : وقال لهم " لست بفاعل حتى ترسلوا معي رجالا " فاختاروا معه رجلين من الأحلاف : الحكم بن عمرو بن وهب بن متعب ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب ، وثلاثة من بني مالك : عثمان بن أبي العاص بن بشير وهو من سدنة الطاغية وهو أيضا صهر بني أمية من قريش كما أنهم أخواله ، وأوس بن عوف أخو بني سالم ونمير بن خرشة بن ربيعة أخو بلحارث .

خرج بهم عبد ياليل وهو ناب القوم وصاحب أمرهم فقدموا المدينة في رمضان سنة تسع للهجرة ، فلما اقتربوا من سرح المدينة رآهم قريبهم المغيرة ابن شعبة وكان يرعى في نوبته ركاب المسلمين ، وكانت رعيتهما نوبا عليهم ، فلما رآهم ترك الركاب واشتد يسعى ليشير رسول الله ﷺ بقدم وفد ثقيف . فلقى أبو بكر رضي الله تعالى عنه فسأله عن الخبر ، فحدثه بأن الثقيفين قد أرسلوا وفدا عنهم ليبايعوا على الإسلام ويشترطوا شروطا ويكتبوا من رسول الله كتابا في قومهم وبلادهم وأموالهم . وكان أحب الأعمال إلى الصديق الأكبر ، إدخال السرور على رسول الله ﷺ ، وكان يعلم أن رسول الله ﷺ لا يسر كسروره بإيمان رجل بالله عز وجل وهدايته بالإسلام ، وقد ورث الصديق الأكبر هذا الخلق من رسول الله ﷺ : فقال للمغيرة (أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا الذي أحدثه) ففعل المغيرة ، ودخل أبو بكر الصديق على رسول الله ﷺ فأخبره بقدم ركب ثقيف .

وعاد المغيرة إلى الوفد فروح الظهر معهم وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ بتحية الإسلام ، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فحيوه بتحية الجاهلية . وشرع الوفد في المفاوضة ومكث الوفد أياما دون أن يصل إلى اتفاق وكان الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ خالد بن سعيد بن العاص وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد بن سعيد ، وطالت المفاوضة ، إذ كان الوفد يساوم ويشترط ، ظنا منهم بأن المسألة مسألة مساومة ، ولما طال مكثهم ، قالوا لرسول الله ﷺ (هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا ؟) .

فقال صلوات الله وسلامه عليه (نعم . إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم) قالوا (أفرأيت الربا فإنه أموالنا كلها ؟) .

فقال ﷺ (لكم رؤوس أموالكم . إن الله تعالى يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ ^(١)) قالوا (أفرأيت الخمر ، فإنه عصير أرضنا لا بد لنا منها ؟) .

فقال ﷺ : إن الله قد حرمها ، وقرأ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾

فسألوا رفع الصلاة عنهم ، فقال لهم ﷺ (لا خير في دين لا صلاة فيه) ولما وجد القوم أنهم لا يستطيعون رفع شرط من شروط الإسلام ، اجتمع بعضهم إلى بعض فقالوا (ويحكم ! إنا نخاف إن خالفناه يوما كيوم مكة ، انطلقوا نكتبه على ما سألناه) ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ .

فقال : (نعم — لك ما سألت . أ رأيت الربة — يقصدون اللات — ماذا نصنع فيها ؟) .

فقال ﷺ (اهدموها) . قالوا (هيهات . لو تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها !) .

فقال عمر بن الخطاب (ويحكم ما أجهلكم ! إنما الربة حجر !) .

قالوا (إنا لم نأتك يا ابن الخطاب ، وقالوا لرسول الله ﷺ " تولى أنت هدمها ، فأما نحن فإننا لا نهدمها أبدا) فقال ﷺ (فابعث إليكم من يكفيكم هدمها) .

فطلبوا إرجاء هدمها ثلاث سنوات ، فأبى رسول الله ﷺ فما برحوا يقصرون الأمد ورسول الله ﷺ يأبى عليهم ، حتى سألوه شهرا واحدا بعد وصولهم إلى ثقيف ، فأبى أن يدعها شيئا مسمى ، وكانوا يطلبون التأجيل خوفا من عامتهم ، كما كرهوا أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلوا في الإسلام ، وفاتهم أن الإقرار ببقائها ولو لحظة واحدة إنما هو إقرار بالشرك وهذا ما لا يسمح به الإسلام أبدا .

(١) سنن القرآن وقسطاؤه الآية ٢٧٨ .

انتهت المفاوضة على أساس إسلام ثقيف ، وكاتب الوفد رسول الله ﷺ على ذلك ، وأسلموا وبايعوا على الإسلام ، ومكثوا في المدينة أياما يتفقهون في الدين . وكانوا إذا ما غدوا إلى رسول الله ﷺ كل يوم خلفوا عثمان بن أبي العاصي على رحالهم لأنه أصغرهم . وكان عثمان إذا ما رجع الوفد وقالوا بالهجرة ، يعمد إلى رسول الله ﷺ ليسأله في الدين ، ويستقرئه القرآن الكريم ، حتى فقه في الإسلام وعلم ، وكان إذا لم يجد رسول الله ﷺ ، يعمد إلى أبي بكر الصديق ، وقد كتم ذلك عن أصحابه .

من هذا نعلم أن رسول الله ﷺ كان يستقبل الناس لتفقيهم والنظر في شئونهم حتى في الأوقات التي تُطلب فيها الراحة ، ومن هذا نعلم أهمية التفقه في الدين ، فقد أخرج الوفد رحيلهم لدعوة ثقيف إلى دخول الإسلام ولم يكن لهذا من سبب سوى العلم بأحكام الإسلام ، ولم ينكر أحد عليهم مكثهم . والذي يتأمل بثه ﷺ للعلم ، يعلم إعجازه في هذا المضمار فكان ﷺ يعطي كل فرد من العلم ما يطيق ، وما تتحمله قدراته الكاملة ، وقد يمكث الرجل يتردد على مجلس رسول الله ﷺ مرات معدودة ، فإذا به يتضلع في أحوال دينه ودنياه ، ويدرك ما لا يدركه المجد في التعلم طول حياته . أما إعجازه التربوي ﷺ ، فلا شاهد عليه أكثر من أن الرجل الفظ الغليظ يجلس اللحظة مع رسول الله ﷺ فيؤمن بالله تعالى وإذا به يدرك في هذه اللحظة من الكمالات ما لا يدركه لو تولى تربيته جميع الناس .

ثم استأذن وفد ثقيف للرحيل ، وليسبقوا البعث الذي سيتولى هدم الطاغية وقالوا (نحن أعلم بقومنا) ، وهم يريدون تمهيد الطريق لدخول ثقيف في الإسلام فوافقهم رسول الله ﷺ على ذلك ، ثم قالوا (يا رسول الله ، أمر علينا رجلا يؤمننا من قومنا) فأمر عليهم عثمان بن أبي العاصي ، لما وجد فيه من الحرص على التفقه في شئون الدين ، وأمره ﷺ أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طاغيتهم ، وهذه بشرى من رسول الله ﷺ بإسلام ثقيف .

وفي الطريق اتَّفَقَ الوفد على أن يكتموا عن قومهم — في بادئ الأمر — ما حدث ، واتفقوا فيما بينهم على خطة لو نجحت لأسلمت تقيف كلها . هذا الوفد هو نفسه الذي كان يضرب الخطط كي يجبر المسلمين على قبول شروط تقيف حين كان متوجها إلى المدينة ، وهو الآن في عودته لا يشغله سوى إسلام تقيف ، لقد توجه الوفد إلى المدينة تقيفاً ، ثم عاد إليها محمديا ، هذه الساعات التي قضاها الوفد مع رسول الله ﷺ ملأته بالإيمان حتى أصبح لا يفكر إلا في سعادة الغير ، وما من قوة تستطيع أن تفعل هذا بالنفس البشرية فتهدئها إلى مجامع الخير سوى الإيمان الكامل برسول الله ﷺ .

فلما دنوا من الطائف خرجت تقيف للقائهم : فماذا رأت ؟ رأت أعضاء الوفد وقد ساروا العنق ، وقطروا الإبل ، وتغشوا ثيابهم ، على عادة العرب إذا ما دهاهم خطب ، وفدحهم أمر جلل . فقال التقيفون (ما جاء وفدكم بخير ولا رجعوا به) ثم ترجل الوفد ، وقصدوا اللات ونزلوا عندها ، حتى لا يثيروا ريبة قومهم . وأقبل عليهم الناس يسألونهم (ماذا رجعتم به ؟) قالوا (أتينا رجلا فظا غليظا يأخذ من أمره ما يشاء ، قد عرض علينا أمورا شدادا : هدم اللات ، وترك الربا ، وحرم علينا الخمر والزنا !) .

فقال تقيف : والله لا نقبل أبدا ...

فقالوا : أصلحوا السلاح وتهيئوا للقتال ، وتعبوا له ورؤوا حصنكم . وأقبلت تقيف تستعد للحرب ، ولكنه كان استعداداً فاتراً لم تعهده تقيف في نفسها ، ذلك لأن تعاليم الإسلام كانت قد غزت عقلية تقيف ، وكسرت فيها نخوة الجاهلية ، كما أن تواتر الأخبار بدخول العرب أفواجا في دين الله تعالى ، وقد فل من حديثهم ، وأضعف حماسهم لآلهتهم ، بل وجعل الكثير من عقلائهم يستكرون تخلف تقيف عن الدخول فيما دخلت فيه العرب .

فعلام هذا التمسك باللات وقد هدمت العرب أصنامها ! وكان زعماءهم يوالون الاجتماع لتقرير خطة العمل ، وبعد ثلاثة أيام ، تبين لهم أن الاستعداد للحرب إنما هو خطة خرقاء لا تعود عليهم إلا بالضرر ، خطة قد فقدت دواعيها ، وحينئذ اجتمعوا بأعضاء الوفد وقالوا لهم (والله مالنا طاقة بقتال هذا الرجل الذي دانت له العرب ، فارجعوا ، فأعطوه ما سألته وصالحوه عليه) .

وهنا تظهر بجلاء حكمة وفد ثقيف ، فلو أخبروهم رأسا باتفاقهم على الإسلام ، لكان مصيرهم مثل مصير عروة تماما ، لذا التجأوا أولا إلى جس نبض ثقيف : فأخبروهم بشروط الإسلام على صورة العرض لا على صورة الاتفاق ، فلما رأوا إعراضهم ، تصوروا لهم بصورة المنكر لما يكرهونه . الموافق لهم فيما يهوونه ، حتى ركنوا إليهم واطمأنوا ، وهم يعلمون أن ثقيفا إذا ما فكرت جديا في الحرب ، فلن تحارب ، وستدعن وتدخل في الإسلام ، وهماهي بعد أن اطمأنت إلى فساد فكرة الحرب ، جاءت تطالب الوفد بقبول الإسلام ، وحينئذ أخبروهم بأنهم قد جاءوهم بذلك ، وهذا من حسن الدعوة وتمام التبليغ ولا يتأتى إلا مع ذوي الألباب من الناس وعقلائهم .

قالوا (فإننا قد قاضيناه وأعطيناه ما أحببنا ، ووجدناه أتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم ، وأصدقهم ، وقد بورك لنا ولكم في مسيرنا إليه ، وفيما قاضيناه عليه ، فأقبلوا عافية الله) .

فقال ثقيف (فلم كتمتمونا هذا الحديث وغمتمونا أشد الغم ؟)

قالوا (أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان) .

وأسلمت تقيف ، وبعد أيام من إسلامهم قدم بعث رسول الله ﷺ ، وقد أمر عليهم خالد بن الوليد ، وكان من بينهم المغيرة بن شعبة داهية العرب وهو من أكبر بيوتات تقيف ، وأبو سفيان وتربطه بهم روابط المصاهرة .

وتدفقت الجماهير ترقب هدم اللات ، وكانت العامة تقول (إنه لا يستطيع أحد أن يهدمها) وخرجت النسوة يبكينها وينشدن :

لتبكين دفاع^(١) أسلمها الرضاع^(٢) لم يحسنوا المصاع^(٣)

وخشيت تقيف أن يعتدي البعض على أصحاب رسول الله ﷺ ، فوقف بنو معتب - قوم المغيرة وعروة - دون أصحاب رسول الله ﷺ يحمونهم مما قد يحدث - وقدم المغيرة أبا سفيان ليهدمها فأبى ، لا خشية من اللات ، بل خشية من العدوان عليه ! فقام المغيرة وقال لمن حوله (الله لأضحكنكم من تقيف) وأخذ الفأس فضرب باب اللات ، ثم سقط يتخبط ! فصاح الحشد صيحة واحدة (أبعد الله المغيرة قتلته الربة) وقالوا متحدّين (من شاء منكم فليقترب منها وليجتهد على هدمها ، فوالله لا استطاع .) وإذا بهم جميعاً يفاجأون بالمغيرة بن شعبة وقد وثب على قدميه يقول (قبحكم الله يا معشر تقيف : إنما هي لكاع ، حجارة ومدر .. فأقبلوا عافية الله واعبدوه) .

بقية من بقايا الشرك يعالجها المغيرة بدهائه ، لينتزعها من القلوب ، ويقتلعها من جذورها ، وقد دبر هذه الخطة ليضع شعور المعتقدين في الطاغية موضع السخرية اللاذعة ، كي يزول من نفوسهم أي أثر للاعتقادات فيها ، ورأى أن

(١) التي تدفع عنهم ما يضرهم .

(٢) اللئام .

(٣) المضاربة بالسيوف .

هذه المقدمة واجبة كي يحول دون أي اعتداء قد يقع ، بعد ما رأى من كثرة الحشد ، والنسوة يثرن الحماس بنشيدهن — ثم ضرب الباب فكسره ، وصعد مع أصحابه على سورها فمازالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض. وهذا هو ما تفعله تعاليم الإسلام بكل عقيدة فاسدة .

ولما وصلوا إلى أساسها قال سادنها (ليغضببن الأساس فليخسفن بهم!) ولكن دعاة الحق ما زالوا يحفرون الأساس ويخرجون مع كل حفنة من تراب أو قطعة من حجر ، عقيدة فاسدة أو أثراً من آثار الشرك والضلال ، أنهم يكافحون بكل قواهم لإنقاذ البشر من العبودية لغير الله عز وجل ومن الخشية إلا منه تعالى : هؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ بأيهم اقتديتم اهتديتم لا يعدلهم في التاريخ بعد الأنبياء إنسان .

وأخرجوا القرايين المهداة لللات من حلي وأموال ولباس ، وجمعوا أنقاضها فأحرقوها ، كيلا يحتفظ بها جاهل ، وفي ذلك يقول^(١) شداد بن عارض الجشمي:

لا تتصروا اللات إن الله مهلكها وكيف نصركم من ليس ينتصر !
إن التي حرقت بالنار فاشتعلت ولم تقا تل لدى أحجارها هدر
إن الرسول متى ينزل بساحتكم يظعن وليس بها من أهلها بشر

وأسسوا مكانها مسجداً وكان بيتاً من بيوت الله تعالى مدرسة شاملة للإنسانية كلها : مدرسة تنطهر فيها النفوس من الخبائث لتنتجه إلى الخالق عز وجل وتناجيه ، فيها يكرم الإنسان وأي تكريم مثل رفع الحجب عنه حين يقول "الله أكبر" . يدخل المؤمنون بيت الله و هم خماص ، فيغدون وهم بطان مما شهدوا من الأنوار . يخرجون دعاة الله عز وجل وهداة للعالمين ومن لم يجد ذلك فقد فاتته معنى الصلاة ، ومن لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر لا خير في صلاته .

(١) من كتاب الأصنام لابن الكلبي ص — ١٨ — ط. دار الكتب ١٩٢٤ .

ورحل الصحب إلى المدينة ومعهم حُلِي اللات وكسوتها فقسمها رسول الله ﷺ من يومه . وسأل أبو مليح بن عروة بن مسعود الثقفي رسول الله ﷺ أن يقضي من مال الطاغية عن أبيه عروة دينا كان عليه وطلب ابن عمه قارب بن الأسود نفس الطلب . فقال رسول الله ﷺ لقارب (إن الأسود مات مشركا) فقال قارب (يا رسول الله ، لكن تصل مسلما ذا قرابة — يعني نفسه — وإنما الدين علي وأنا الذي أطلب به) فأمر صلوات الله وسلامه عليه بقضاء دينهما من مال الطاغية .

وبعد :

فإن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حين انصرف عن حصار ثقيف بالطائف جاء رجل فقال (يا رسول الله ادع عليهم) فقال رسول الله ﷺ : اللهم اهد ثقيفا وات بهم ، وقد استجاب الله عز وجل دعاء رسوله صلوات الله وسلامه عليه فما أرحمه بالخلق وما أشفقه عليهم .

obeikandi.com

٦ - " أكرم بقوم رسول الله شيعتهم

إذا تفرقت الأهواء والشيع "

بنو تميم من القبائل العربية الكبرى ، وقد وصفهم ابن حزم بأنهم (قاعدة من أكبر قواعد العرب) ، وكانت منازلهم — حتى ظهور الإسلام — تمتد من نجد^(١) إلى شط العرب والحيرة وتصل إلى الخليج العربي عند البحرين .

وفي بداية الإسلام كانت تميم وحلفاؤها تعبئ عددا ضخما ذكر جرير الشاعر أنه سبعون^(٢) ألفا ، وفي ذلك يقول :

سائل ذوي يمن ورهط محرق والأزد إذ ندبوا لنا مسعودا^(٣)
فأتاهم سبعون ألف مدجج متسريلين يلامعا^(٤) وحديدا

ديانتهم : كان بعضهم في الجاهلية يعبد الشمس وكانت سدانة بيت الشمس في بني أوس بن مخاشن من بني أسيد بن عمرو بن تميم وقد خربته هند بن أبي هالة وصفوان بن أسيد في الإسلام ، وعبدت طائفة من تميم الدبران من النجوم ، ودان بعضهم بالنصرانية مثل عدي بن زيد العبادي الشاعر ، وآخرون بالمجوسية ومنهم زرارة بن عدس وابنه حاجب ، والأقرع بن حابس .

(١) الموجود الآن من تميم في نجد قبائل تنتمي معظمها إلى بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم وإلى بني سعد بن زيد مناة وإلى بني عمرو بن تميم .

(٢) يؤيد ذلك قول معاوية بن أبي سفيان حين سئل عن سبب سكوته على الأحنف بن قيس وكان قد أحفظه . فأجاب بقوله (هذا الذي لو غضب لغضب له مائة ألف من تميم لا يسألونه فيم غضب)

(٣) هو مسعود بن عمرو العتكي .

(٤) اليلمع — الدرع .

وكانت الإفاضة في الحج في الجاهلية يتولاها ولد الغوث بن مر ويقال لهم صوفة ، فلما انقرضوا تولتها بنو تميم فكانت في بني عطار بن عوف بن كعب بن سعد ، فلا يجوز لأحد أن يمر في مواقف الحج قبل أن يمروا ، وقد ظهر الإسلام وكانت الإفاضة في آل صفوان من بني عطار وقد انتهت إلى كرب بن صفوان ، وفي ذلك يقول أوس بن تميم بن مغراء السعدي :

لا يبرح الناس ما حجوا معرفهم حتى يقال أجزوا آل صفوانا

لغتهم : يقول مصطفى صادق^(١) الرافعي إن (أهم القبائل الذين هم مادة اللغة فيما نص عليه الرواة قيس و تميم وأسد والعَجَز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن وهم خمس قبائل أو أربع منها : سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف) ويقول عمرو بن العلاء أنصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم ، و في رواية أخرى عليا تميم وسفلى قيس .

وليس من الحكمة استخلاص مثل هذه الأحكام العامة ، استنادا إلى شواهد متفرقة ، والأصح أن يقال أن لغة تميم وقيس وبكر كانت من مجموعة اللغات السائدة في شرقي بلاد العرب وهي تختلف عن لهجات القسم الغربي اختلافا واضحا — وتشير كتب اللغة إلى وجود فوارق ومميزات في لهجة بني تميم تميزها ، عن غيرها ، منها :

١- **النعنة :** في لغة تميم وقيس وهي وضع العين مكان الهمزة إذا كانت أول الكلمة ففي : إنك ، وإذن ، وأسلم يقولون : عنك ، وعذن ، وعسلم .

٢- **التلثة :** في بهراء وهم بطن من بطون تميم وهم يكسرون أحرف المضارعة مطلقا . وقد ذكر سيبويه مواضع يكون فيها كسر أوائل الأفعال

(١) تاريخ آداب العرب له — ط ثانية — ١٩٤٠ — ص ١٢٧

المضارعة عاما في لغة العرب إلا أهل الحجاز وذلك في نحو مضارع فعل :
المفتوح الفاء المكسور العين إذا كانت لامه ياء أو واو نحو خشي فيقولون
نخشى بكسر النون ، وقد نسب ابن فارس هذا الكسر في فقه اللغة إلى أسد
وقيس .

٣- لغة فقيم دارم يبدلون الياء جيما بغير تقييد كما في علي وعشي فيقال :
علج وعشج ومن هذا قول الشاعر :

خالي عويف وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج

قال ابن فارس الياء تجعل جيما في النسب عند بني تميم مثل غلامج
أي غلامي.

٤- وفي لغة تميم يجيئون باسم المفعول من الفعل الثلاثي على أصل الوزن
إذا كانت عينه ياء ففي مبيع يقولون مبيوع .

علاقات بني تميم بالفرس في الجاهلية :

كانت على تميم حصاة في خفارة القوافل الفارسية التي تخترق شبه جزيرة
العرب إلى اليمن ، وكانت عير^(١) كسرى تخفر من المدائن حتى تدفع إلى
المناذرة بالحيرة ويخفرها المناذرة بخفراء من ربيعة حتى تدفع إلى هودة بن
علي الحنفي باليمامة ويخفرها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة ، ثم تدفع
إلى تميم وتجعل لهم جعالة فيخفرونها حتى تبلغ مأمنها إلى اليمن فيتسلمها
عمال كسرى هناك .

(١) قافلة .

وكان في هجر من أرض البحرين سوق المشقّر وقد بنى الفرس حصنا بالقرب منه ، وكان تجارهم يقصدونه من البحر والبر ويتجرون مع القبائل العربية ، ومن القبائل المجاورة لهذا السوق قبائل تميم وعبد القيس ، ويشرف على سوق المشقّر رهط المنذر بن ساروي ملك البحرين من بني عبدالله بن زيد بن دارم من تميم ، وكانوا يسيرون في معاملتهم في هذه السوق سيرة الملوك بدومة الجندل فيأخذون العشر ولا يبتاع بها أحد إلا بإذنهم .

وقد حاول الفرس أن يبسطوا سلطانهم على تميم التي كانت تهدد دائما طرق اتصالهم برا بالساحل الشرقي الإفريقي وباليمن - ويروي الإخباريون أن سابور ملك الفرس قام بعمليات حربية قاسية لتأديب القبائل العربية ومن بينها تميم ، ويروون أنه كان يأمر بانتزاع أكتاف من يفغ في يده ولذا لقبوه بذي الأكتاف .

وكان هوزة بن علي الحنفي ملك اليمامة يريد أن ينفرد بخفارة القوافل الفارسية هناك فحاول أن يبعد بني تميم عن خفارة قوافل الفرس وأن ينفرد بخفارتها في منطقتهم ، فانتظر حتى أرسل "وهرز" عامل الفرس على اليمن قافلة تحمل نبعاً وقسياً إلى العاصمة الفارسية - المدائن - فلما وصلت أرض اليمامة أقنع مرافقيها من الفرس بعدم دفع الجعالة التي يدفعونها لتميم على أن يأخذها هو مع ضمان سلامة مرور القافلة في أرضهم ، فقبلوا . ورأت تميم أن هذا التصرف يعتبر خرقاً للقاعدة المتفق عليها وكان بين الذين أشاروا بمهاجمة القافلة صعصعة بن ناجية جد الفرزدق الشاعر - فلما توسطت القافلة أرض بني حنظلة هاجمتها تميم وغنمتها وأسروا هوزة بن علي ، ولم يطلقوه حتى افتدى نفسه بثلاثمائة بعير وفي هذا يقول شاعرهم :

ومنا رئيس القوم ليلة أدلجوا	بهوزة مقرون اليدين إلى النحر
وردنا به نخل اليمامة عانيا	عليه وثاق القد والحلق السمر

ثم انطلق هوذة ومن بقي من الفرس إلى كسرى ابرويز وقص عليه هوذة ما حدث وخشي كسرى أن تكون مؤامرة مدبرة باتفاق مع هوذة ، فسأله عن علاقته بتميم فقال له : بني وبينهم حساء الموت ، وهم قتلوا أبي — ثم سأله كيف يدركهم ؟ فقال له إن أرضهم لا تطيقها جيوش الفرس لمناعتها ، وأشار عليه بأن يحبس عنهم الميرة سنة ، ثم يرسلها ويرسل معها جندا فيتظاهر بإقامة السوق وحينئذ يدبر الإيقاع بكل من يحضره من تميم — ووافق كسرى على هذه المكيدة ، ولما وصلت القافلة أعلن هوذة : أن كسرى قد أرسل الميرة ، واستعد في بني حنيفة والجيش الفارسي لما سيحدث . وكان القائد الفارسي يُدْخِلُ من يريد حصنَ المشقر بعد أن يجرده من سلاحه ليشتري بغيته — ولاحظ رجل من تميم وهو خيري بن عبادة أن قومه يدخلون ولا يخرجون فقال لبني تميم : ويلكم ! أين عقولكم ؟ فوالله ما بعد السلب إلا القتل، ثم اقتحم الباب وفتحه فإذا الناس يقتلون ، وفي رواية الطبري أن الذي فتح الباب عبيد بن وهب التميمي وفي ذلك يقول :

ألا هل أتى قومي على النأي أنني حميت ذماري يوم باب المشقر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة تفرج منها كل باب مضبر^(١)

وأطلقت العرب على قائد الفرس لقب " المعبر " لأنه كان يقطع الأيدي والأرجل ، وسمي هذا اليوم بيوم " الصفقة " لأن باب حصن المشقر أصفق على بني تميم ويسمى أيضا يوم المشقر .

وممن كانت لهم صلات بالأكاسرة والمناذرة : الشاعر عدي بن زيد من بني امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم وكان جده كاتباً لآل المنذر ، واتصل هو

(١) مقتل .

بابرويز ملك الفرس فكان ترجمانه وكاتبه بالعربية ، وبعد وفاة المنذر الرابع أشار على ملك الفرس بإسناد منصبه إلى ابنه النعمان الثالث ، فوافق على ذلك ، وتوثقت الصلات بين عدي والنعمان إلى درجة جعلت النعمان ينبذ عبادة الأوثان ويدخل في النصرانية دين عدي متأثراً بنصحه ، إلا أن النعمان خشي بعد ذلك على مركزه من نفوذ عدي فما زال يحتال حتى استطاع أن يأمن جانب ابرويز فأوقع به وحبسه وفي ذلك يقول عدي :

ألا من مبلغ النعمان عني	علانية وما يغني السرار
بأن المرء لم يخلق حديدا	ولا هضبا توقلله الوبار ^(١)
ولكن كالشهاب سناه يخبو	وحادي الموت عنه ما يحار
فهل من خالد إما هلكنا	وهل بالموت يا للناس عار!

ولم يزل في الحبس حتى مات ٦٠٤ هـ . وتمكن ابنه زيد من أن يحل عند ابرويز محل أبيه فأخذ يدبر المكائد ليوقع بالنعمان ، وما زال به حتى تغير على النعمان وقبض عليه وأوطأه الفيلة سنة ٦١٣ م . فكانت حادثة عدي من أسباب سقوط الأسرة اللخمية في الحيرة .

علاقاتهم بالمناذرة :

في الفترات التي يسودها السلام ، كان ملوك فارس وأقبايلهم من لخمى الحيرة يعملون على اجتذاب القبائل البدوية بالمنح والعطايا ومنها الإنعام على بني يربوع بمنصب الردافة لملوك آل المنذر بالحيرة ، وكان ذلك في عهد المنذر الثالث المتوفى ٥٤٤ م . والذي يتولى الردافة يكون ترتيبه التالي للملك في مجلسه ، وينوب عنه في المجلس إذا غاب . وحاول المنذر أن يحول الردافة

(١) حيوان صغير .

من بني يربوع إلى بني مجاشع من تميم ، فرفضت بنو يربوع ، فأرسل المنذر قوة لإخضاعهم ، فالتقوا بها يوم طخفة وكسروا جيش المنذر وأجبروه على إبقاء منصب الردافة فيهم ، واستمر الأمر كذلك حتى ظهر الإسلام وهي في بني عتاب بن هرمي الرياحي من بني يربوع .

ومن أيام تميم مع المناذرة يوم أواره الثاني ، وسببه مقتل ابن لعمر بن هند كان مسترضعا في بني دارم من تميم عند زرارة بن عدس ، وقد قتله دون أن يعرفه رجل من دارم اسمه سويد لأنه عبث بناقة له ، فلما عرفه هرب خوفا على نفسه ، فسار عمرو بن هند وفتك بدارم ، ولاشك أن العداء المستفحل بين طيء و تميم كان له دخل في إثارة عمرو بن هند عليهم .

وكان زهير بن جذيمة العبسي يفرض إتاوة على هوازن كلها فقتله خالد بن جعفر الكلابي ، ثم هرب إلى النعمان مستجيرا به ، فتوجه إليه الحارث بن ظالم المري وكان فاتكا فقتله في قبة النعمان ثم هرب ، وأخذ يستجير بالقبائل حتى أجاره ضمرة بن ضمرة من بني دارم على النعمان وهوازن . فجهز النعمان جيشا انضم إليه الأحوص بن جعفر الكلابي أخو خالد وجمع من بني عامر ، ونشبت الحرب بين بني مالك بن حنظلة وبين النعمان وكان على بني دارم زرارة بن عدس فانكسرت جموع النعمان وبني عامر .

من أيام تميم :

وكانت تميم منقسمة إلى بطون وقبائل قد استحكمت بينها الخلافات واستعرت بينها الحروب مما أدى إلى تكوين تكتلات في داخل القبيلة وتكوين أحلاف بينها كالحلف بين يربوع وبني نهشل ، وقد ذكر ابن النديم في الفهرست أن النسابة أبا اليقظان قد وضع مؤلفا في أحلاف تميم .

ومن أيام تميم مع قبائل ربيعة :

يوم نبتل ، ويوم جدود ، ويوم زرود ، ويوم ذي طلوح ، ويوم الأياد ، ويوم الغبيط ، ويوم فشارة ، ويوم زيالة ، ويوم عاقل ، والشيطين ، والوقبي الخ..
ومن أيامهم مع بكر : أيام الزورين والجفار والستار .

ومن أيامهم مع قيس :

أيام : الرحرخان ، وشعب جبلة ، وذي نجب ، والصرائم ، والرغام ، وجزع
ظلال ، والمروت ...

وفي يوم الرحرخان انهزمت بنو تميم وأسر معبد بن زرارة أسره عامر
والطفيل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب . فاستجد لقيط بن زرارة بالنعمان بن
المنذر وهذا يدلنا على أن المناذرة كانوا يشتركون في حروب القبائل طبقا لما
تقتضيه مصالحهم من ترجيح كفة على أخرى . كما استعان بالجون الكلبي
ملك هجر وانضمت إليه ذبيان لعداوتها مع عيس وبنو أسد حلفاء ذبيان ،
وسار رؤساء تميم حاجب ولقيط ابنا زرارة ، وعمرو بن عمرو ، والحارث
ابن شهاب ومعهم أحلافهم وقصدوا بني عامر فكان جمعا لم تشهد الجاهلية
مثله ، ولما علمت بنو عامر بمسيرهم باتوا لهم في شعب جبلة حيث باغتهم
فهزموهم هزيمة فادحة وقتل لقيط وأسر حاجب بن زرارة .

مصرع خمسة ملوك من بني آكل المرار :

اجتمعت مضر وربيعه على أن يجعلوا منهم ملكا يقضي بينهم ، فكل أراد أن
يكون منهم ، ثم تراضوا أن يكون من ربيعة ملك ومن مضر ملك . ثم أراد
كل بطن أن يكون الملك منهم ، وحل لهذا المشكل اتفقوا على أن يتخذوا

ملوكا من اليمن وطلبوا ذلك من بني^(١) آكل المرار من كنده . فأجابوهم إلى رغبتهم ، فملكوا ستة من أبناء الحارث فكان محرق ملكا على تميم وضبة ، وشراحيل على بني عامر ، و معد يكرب على بقية قيس ، وحجر^(٢) على بني أسد وكنانة ، وشرحبيل على وائل ، وسلمة على تغلب وبكر . ثم وثبت كل قبيلة على ملكها فقتلته ولم يبق من بني آكل المرار سوى سلمة ، فجمع جموع اليمن وسار لقتال نزار ، وحدثت وقعة يوم الكلاب الثاني وكانت لتميم على مذبح .

وممن اجتمع له خراج مضر ذو الأعواز سيد بني تميم ، وتقول الروايات أنه لما كبر كان يحمل على سرير ويطاف به على مياه العرب فتؤدي إليه الخراج.

بطون تميم :

١- بنو سعد بن زيد مناة بن تميم :

كانت كثيرة العدد ، يربو عددها على باقي تميم ، بل (عدلت مضر كثرة)^(٣) ولذا كانت تسمى سعد الأكثرين ، وفي المثل (في كل أرض سعد بن زيد^(٤))

(١) آكل المرار هو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأصغر ولأه أخوه حسان الحميري على قبائل معد بن عدنان فدانت له وهو أول من يذكر من ملوك كنده . وذكر البغدادي في خزائن الأدب أن في آكل المرار خلافا هل هو المذكور أم ابن ابنه الحارث بن عمرو بن حجر .

(٢) هو والد امرئ القيس الشاعر المشهور .

(٣) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة : ج ١٥ - ص ١٢٦ ط - ١٩٦٢ .

(٤) قاله الشاعر : الأضبط بن قريع : وكان قومه قد أساءوا إليه ، فانتقل عنهم فأساء هؤلاء إليه فانتقل عنهم وما زال ينتقل من قوم إلى قوم حتى عاد إلى قومه فقال له .

روى أبو العباس المبرد في كتاب الكامل : أن معاوية بن أبي سفيان قال للأحنف بن قيس وجارية بن قدامة ورجال من بني سعد كلاماً أحفظهم فردوا عليه رداً مقذعاً ، وكانت أم عبدالله بن معاوية تسمع ما يقولون في حجرة قريبة من المجلس ، فلما خرجوا قالت : يا أمير المؤمنين لقد سمعت من هؤلاء الأجلاف كلاماً تلقوك به فلم تتكر ، فكدت أخرج إليهم فأسطو بهم ! فقال معاوية : إن مضر كاهل العرب وتميما كاهل مضر ، وسعدا كاهل تميم وهؤلاء كاهل سعد " وكان عامة عدد بني سعد في كعب بن سعد .

ومن بني سعد الشاعر المخبل السعدي قال أبو الفرج الأصفهاني كان مخضرمًا من فحول الشعراء عمرًا طويلاً وتوفي في خلافة عمر أو عثمان رضي الله تعالى عنهم . ومنهم الحريش بن هلال السعدي أشجع العرب .

ومن بني كعب بن سعد : المستوغر بن ربيعة وكان شاعرا فارسا عمر زمانا طويلا أدرك الإسلام وعاش إلى أيام معاوية وذكره ابن حجر في الإصابة في القسم الثالث .

ومنهم سليك بن سلكه السعدي نسب إلى أمه سلكه وكانت سوداء . وهو أحد أغربة العرب وهجائهم وصعاليكهم وقتاكهم وهو سليك بن عمرو قتل عام ١٧ قبل الهجرة .

ومن السابقين الأولين في الإسلام منهم : خباب بن الأرت : سبته ربيعة في حروبها مع تميم ثم باعوه في مكة فال إلى أم أنمار بنت سباع الخزاعية ، وكان آل سباع حلفاء بني زهرة ، وأعتقته أم إنمار : فهو تميمي النسب ، خزاعي الولاء ، زهري الحلف .

ومن ربيعة بن كعب بن سعد : جارية بن قدامة الصحابي .

ومن بني عوف بن سعد : الأضيظ بن قريع الشاعر .

ومن بني عوف : بنو بهدلة وفيهم نخبة من أشراف تميم : دعا المنذر بن المنذر يوما ببردَي أبيه محرق بن المنذر في مجلس جمع وفود العرب فقال (ليلبسن هذين البردَين أعز العرب وأكثرهم حسبا) فأحجم الحاضرون حتى قام أحيمر^(١) بن خلف بن بهدلة فقال (أنا لهما) قال الملك : بماذا ! قال : بأن مضر أكرم العرب وأعزها وأكثرها عديدا ، وأن تميما كاهلها (أي أعلاها) وأكثرها ، وأن بيتها وعددها في بني بهدلة بن عوف وهو جدي ، فمن أنكر هذا من العرب ، فلينافرنني) فلم ينافره أحد . فقال المنذر هذا أنت في أهلِكَ وعشيرتك فكيف أنت في عترتك وأدانيك ؟ فقال : أنا أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة . فدفع إليه البردَين ، وإلى هذا أشار الزبيرقان بن بدر إذ يقول :

وبردا ابن ماء المزن عمي اكتساهما بفضل معد حيث عدت محاصله
والزبيرقان من خاصة بني بهدلة ، وكان في وفد تميم إلى رسول الله ﷺ وقد أسلم . واستعمل ﷺ على صدقات بني سعد رجلين فاستعمل الزبيرقان على ناحية وقيس بن عاصم على الأخرى .
ومن بني عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب : صعصعة بن معاوية ، عم الأحنف بن قيس ، وقد عده العسكري وغيره في طبقات الصحابة .

روى الزبير بن بكار : أن الأحنف بن قيس قال لأصحابه : أتعجبون من حلي وخلقي ! إنما هذا شيء استفدته من عمي صعصعة بن معاوية ، وذكر من وصاياه له (يا ابن أخي لا تشكُ الذي نزل بك إلى أحد ، فإن الناس رجلان إما صديق فيسوؤه وإما عدو فيسره ، ولكن أشكُ الذي نزل بك إلى الذي ابتلاك ، ولا تشكُ قط إلى مخلوق مثلك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه مثل الذي نزل بك ، يا ابن أخي إن لي عشرين سنة لا أرى بعين هذا سهلا ولا جبلا فما شكوت ذلك لزوجتي ولا غيرها) .

(١) في رواية أخرى أن الذي قام هو ابنه عامر بن أحيمر .

والأحنف بن قيس يكنى بأبي بحر ، والأحنف لقب له اشتهر به شهرة أدت إلى الاختلاف على اسمه وقد جزم ابن حبان بأنه الحرث . أدرك الإسلام ولم يجتمع بالنبي ﷺ . قال (بينما أنا أطوف بالبيت في زمن عثمان إذ أخذ رجل من بني ليث بيدي فقال ألا أبشرك ؟ قلت : بلى . قال أتذكر إذ بعثني رسول الله ﷺ إلى قومك فجعلت أعرض عليهم الإسلام وأدعوهم إليه فقلت أنت : إنك لتدعونا إلى خير وتأمرك به ، وإنه ليدعو إلى الخير ؟ فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : اللهم اغفر للأحنف) . فكان الأحنف يقول فما شئ من عملي أرجى عندي من ذلك .

وأخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد من طريق جبير بن حبيب أن رجلين بلغا الأحنف بن قيس أن رسول الله دعا له ، فسجد شكرا ، وكان يضرب بطلمه المثل . وقال عنه عمر رضي الله تعالى عنه : الأحنف سيد أهل البصرة . وسأله رجل : بم سدت قومك وأنت أحنف أعور ! قال : بتركي ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيناك — وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل البصرة . مات بالبصرة أيام ولاية مصعب بن الزبير ٦٧هـ فمضى مصعب في جنازته وقال : ذهب اليوم الحزم والرأي .

ومن بني عبيد : بنو منقر :

وسيدهم قيس بن عاصم المنقري : قال ابن سعد كان قد حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، و كان حكيما حلما . قال الأحنف بن قيس (رأيته يوما محتبيا فأتى برجل مكتوف وآخر مقتول . فقيل هذا ابن أخيك قتل ابنك ! فالتفت إلى ابن أخيه فقال : يا ابن أخي بئسما فعلت ، أثمت بربك ، وقطعت رحمك ، ورميت نفسك بسهمك . ثم قال لابن له آخر : قم يا بني فوار أخاك وحل أكتاف ابن عمك ، وسق إلى أمه مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة .) وعده الأحنف فيمن أخذ عنهم الحلم . ولا صحة للروايات التي تقول إنه أول من وأد في تميم في الجاهلية . لأن طباع المرء تنبي عن فعالة . قال له الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه صف لنا نفسك . فقال (أما في الجاهلية فما هممت بملازمة ولا أقبلت على تهمة ، ولم أر إلا في خيل مغيرة أو نادي عشيرة أو حامي جريرة . وأما في الإسلام فقد قال الله تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ .

وجاء في حديث رواه ابن شاهين من طريق المدائني أن قيس بن عاصم لما قدم على رسول الله ﷺ قال : هذا سيد أهل الوبر . وقد نال هذه المرتبة لما اجتمع فيه من الخصال الحميدة كالشجاعة والنجدة والمروءة والعفة والوفاء وكان أبرزها الحلم وهي صفات قلما تجتمع لأحد من أهل البادية ، وقد بزَّ قيس بن عاصم فيها أقرانه . ولما توفي بالبصرة رثاه عبده بن الطيب فقال :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحمها
وما كان قيس هلكة هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

ومن بني منقر : بنو الأهتم وهم أهل بلاغة في الجاهلية والإسلام ، والأهتم لقب أبيهم واسمه سنان ، ومنهم عمرو بن الأهتم وكان خطيبا شاعرا وكان يقال لشعره الحل المنشرة ، وكان في وفد تميم الذي قدم على رسول الله ﷺ ، ومن آل الأهتم : شيبه بن سعد بن الأهتم والمؤمل بن خاقان بن الأهتم ، وخالد بن صفوان بن عبدالله بن الأهتم وكلهم من البلغاء المشهورين .

ومن بني منقر : منازل ابن ربيعة الشاعر ويكنى أبا أكيدر .

٢- بنو عمرو بن تميم :

منهم أبو هالة بن زرارة تزوج السيدة خديجة بنت خويلد في الجاهلية وله منها الحارث وهند وهالة ، ذكر ابن الكلبي وابن حزم أن الحارث أول شهيد في سبيل الله تعالى ، استشهد تحت الركن اليماني ، وقال العسكري في الأوائل : لما أمر الله نبيه ﷺ أن يصدع بما يؤمر قام في المسجد الحرام فقال : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، فقاموا إليه ، فأتى الصريخ أهله فأدركه الحارث بن أبي هالة فضرب فيهم ، فعطفوا عليه فقتل ، وفي الفتوح لسيف ما يؤيد ذلك ، إذ روي عن عثمان بن مظعون أن الحارث قتل (ونحن أربعون رجلا ليس بمكة أحد على ما نحن عليه .)

وأخوه هند كان فصيحاً بليغاً وصافاً ، وقد سعد السعادة الكبرى حين تزوج رسول الله ﷺ سيدة النساء أم المؤمنين السيدة خديجة ، وكان يقول أنا أكرم الناس أبا وأما وأخا وأختا : أبي رسول الله ﷺ وأخي القاسم وأختي فاطمة وأمي خديجة رضي الله تعالى عنهم .

قتل يوم الجمل وفي رواية أنه مات بالبصرة بالطاعون ، ويقال إن الذي مات بالطاعون ابنه واسمه هند أيضا .

ومن بني عمرو بن تميم : يزيد بن عبدالله حليف بني مخزوم قتل مشركاً في وقعة بدر ، ومن فرسانهم في الإسلام عباد بن الحصين الحبطي^(١) من بني الحارث بن عمرو ويقال لهم الحبطات ويكنى أبا جهضم ، وكان يقوم بألف فارس ، ولاء عبدالله بن الزبير شرطة البصرة ، وكان مع المصعب في قتاله مع المختار بن أبي عبيد ، وشهد فتح كابل واستشهد بها ٨٥هـ .

ومن بني أسيد بن عمرو : أوس^(٢) بن حجر بن عتاب ، قال عنه أبو عمرو ابن العلاء هو شاعر تميم غير مدافع . ويعده آخرون شاعر مضر حتى أسقطه زهير بن أبي سلمى .

ومنهم أكتثم بن صيفي حكيم العرب ، لما بلغته أخبار الرسالة المحمدية أرسل رجلين من قومه ليأتياه بالخبر ، فلما عادا إليه وبلغاه ما سمعاه ، جمع قومه وقال : أي قوم إنه يأمر بكمارم الأخلاق وينهى عن ملائمتها فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذئابا .

(١) في المعارف لابن قتيبة أنه الحنظلي التميمي .

(٢) ولد سنة ٥٣٠م وتوفي سنة ٦٢٠م .

وقال لهم (إن سفيان بن مجاشع سمى ابنه محمدا حبا في هذا الرجل . وإن أسقف نجران كان يخبره بأمره وبعثه فكونا في أمره أولاً ولا تكونوا آخرا) وكان أكثم قد بلغ من الكبر عتيا وهو من معمر بن العرب ذكره أبو حاتم في المعمرين ، ولما سمع مالك بن نويرة ما قاله قال : إن شيخكم خرف ! فقال أكثم (ويل للشجي من الخلي ، والله ما عليك آسي ولكن على العامة) ثم نادى في قومه فتبعه منهم مائة رجل منهم : الأقرع بن حابس ، وسلمى بن القيس وأبو تميمة الهجيمي ، ورباح بن الربيع ، والهنيد ، وعبدالرحمن بن الربيع ، وصفوان بن أسيد ، فساروا حتى إذا كانوا دون المدينة بأربع ليال كره ابنه حبيش مسيره ، فأدلى على إيل أصحاب أبيه فنحروها ، وشق القرب وأهرق الماء — ويقول الذين يرجحون إسلامه : إن أكثم في هذه الرحلة لما حضرته الوفاة أوصى أصحابه بقوله (أقدموا على هذا الرجل فأعلنوه بأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنه محمد رسول الله) وأوصاهم باتباعه ومؤازرته ولا يبعد أن يكون هذا الركب وفد تميم الذي قدم المدينة .

وأسلم ابن أخيه صفوان بن أسيد وابن ابنه : صفوان بن صفوان واستعمل رسول الله ﷺ صفوان بن صفوان على صدقات بني عمرو وهو من الذين ثبتوا في حروب الردة . وأسلم حنظلة بن ربيعة بن صيفي وكان من كتاب الوحي .

ومن بني أسيد بن عمرو : حجير^(١) بن أبي إهاب بن عزيز حليف بني نوفل وجده عزيز تزوج أخت الحارث بن عامر بن نوفل . وحجير هو الذي ابتاع خبيب بن عدي الذي أسر في حادث الرجيع سنة ٣هـ لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليقتله بأبيه — أسلم حجير فيما بعد .

(١) وفي روايات أنه من بني دارم ثم من بني عدس .

وممن اشتهر من الشعراء في الإسلام من بني مازن بن مالك بن عمرو :
مالك بن الريب المتوفى سنة ٦٠هـ وكان من الأدباء الظرفاء الفتاك ، وانتهى
أمره بأن لزم سعيد بن عثمان بن عفان الذي تعهد بأن يكفيه بشرط ألا يلجأ
إلى اللصوصية ، فلزمه إلى أن مات .

٣- ومن بني امرئ القيس بن زيد مناة : عدي بن زيد الشاعر المشهور وقد
سبقت الإشارة إليه .

٤- ومن بني مالك بن زيد مناة بن تميم :

علقمة بن عبدة بن النعمان الربيعي : من ربيعة^(١) الكبرى ، وشعره يحكي
الصراع بين اللخميين والغساسنة في عصره ، وله قصة مع الحارث بن جبلة
ملك الغسانيين الذي أسر شأسا أختا علقمة وأناسا من تميم في معركة عين أباغ
٥٨٣م وقد أطلق الحارث بن جبلة سراحهم إكراما لعلقمة ، وكان ينافس امرئ
القيس ، ويروى أن الشاعرين تحاكما إلى زوجة امرئ القيس فحكمت لعلقمة
على زوجها ، فطلقها ، وتزوجها بعده علقمة فأطلقوا عليه الفحل . ووفاته
حوالي ٦١٢م .

ومن بني حنظلة بن مالك : ثم من ربيعة الوسطى المغيرة بن صنباء الشاعر ،
ومن البراجم من بني حنظلة : عبد قيس بن خفاف وله قصة مشهورة مع حاتم
الطائي المتوفى سنة ٤٥ ق.هـ ، ولأميته مطبوعة في كتاب التعليقات الشريفة
على جملة من القصائد^(٢) الحكمية .

(١) الربائع في تميم أربعة : أ- ربيعة الكبرى وتسمى ربيعة الجوع ومنهم علقمة وأخطأ ابن دريد
فجعلها من ربيعة الوسطى ب- ربيعة الوسطى : وهو ربيعة بن حنظلة بن مالك . ج- ربيعة
الصغرى وهو ربيعة بن مالك بن حنظلة بن مالك . د- ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة .
(٢) مطبوعة ١٣١١هـ بالقاهرة .

ومن البراجم : ضابئ بن الحارث بن أرطاة الشاعر الهجاء . وله قصة مع أمير المؤمنين ذي النورين عثمان ، وكان يحبس في الهجاء : وكان من أمر ضابئ أنه استعار كلبا يصيد به من بني جروول بن نهشل ، ولما طالبوه به امتنع فأخذوه منه قهرا فهجاهم بأبيات جاء فيها :

وأكم لا تتركوها وكلبكم فإن عقوق الوالدين كبير

فاستعدوا عليه عثمان بن عفان فحبسه ، وجاء ابنه عمير يريد الفتك بعثمان فلم يقدر وفي ذلك يقول :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حالته

في قائلة لا يبعد الله ضابئا ولا يبعدن أخلاقه وشمائله

وقد قتله الحجاج لهذا السبب .

ومنهم بنو يربوع بن حنظلة .

ومن شعرائهم السفاح بن بكر بن معدان اليربوعي .

ومن فرسانهم : عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي فارس من فرسان العرب المغاوير ورئيس من رؤسائهم في الجاهلية ، وكانت له وقائع كثيرة من أشهرها يوم الغبيط وكان بين بني مالك وعليهم عتيبة وبين بني شيبان وعليهم فارس ربيعة وصنديدها : بسطام بن قيس ، وذاع صيت عتيبة حين أسر في هذه الواقعة بسطاما ، ومكث عنده في الأسر حتى استوفى فداءه أربعمائة من الإبل وجز ناصيته وخرى سبيله على ألا يغزو بني يربوع . وقاتل الغساسنة يوم كنهل و هزمهم ، وقتل عتيبة في معركة بين بني أسد وبين بني يربوع قتله ذؤاب بن ربيع الأسدي وقيل بل قتل يوم ثيره قتله جعل ابن مسعود ، وكانت العرب تقول عنه إنه صياد الفوارس أو سم الفوارس وفي قتله يقول مالك بن نويرة :

فخرت بنو أسد بمقتل واحد صدقت بنو أسد عتيبة أفضل

ومن فرسانهم مالك بن حطان من بني عبيد بن ثعلبة بن يربوع : فارس شاعر جاهلي يقال له ابن الجريمة نسبة إلى أمه وكانت من بني جرم ، أصيب يوم قشارة وعاش بعده سنة واحدة .

ومن بني عبيد بن ثعلبة : مالك بن نويرة كان شاعرا شريفا فارسا من فرسان يربوع في الجاهلية وهو ممن كانت لهم الردافة في الجاهلية ، ثم أسلم واستعمله ﷺ على صدقات بني حنظلة ، وأسلم أخوه متمم .

ومن السابقين الأولين من بني يربوع : وقاد ابن عبدالله حليف بني عدي بن كعب من قريش أسلم قديما قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وهو أول من قتل قتيلا من المشركين حين اصطدمت بهم سرية نخلة وفي ذلك يقول شاعر بني عدي :

سقينا ابن الحضرمي رماحنا بنخلة لما أوقد الحرب واقد

ومن أبطالهم في الإسلام عتاب بن ورقاء الرياحي اليربوعي ، استشهد في واقعة مع شبيب بن يزيد الخارجي سنة ٧٧هـ . ومن أجوادهم خالد بن عتاب ومنهم الحر بن يزيد اليربوعي أرسله الحصين بن نمير التميمي في ألف فارس لاعتراض الإمام الحسين رضي الله تعالى عنه حين قصد الكوفة فانضم إلى الإمام الحسين وقاتل عنه حتى استشهد .

ومن بني حنظلة : بنو دارم بن مالك بن حنظلة .

وأشهر فروع دارم هم : بنو نهشل وبنو مجاشع وبنو عبدالله .

ومن بني نهشل : الأسود بن يعفر بن حارثة من شعراء الجاهلية ، جعله ابن سلام في الطبقة الثامنة مع خدّاش بن زهير والمخبل السعدي والنمر بن تولب وقصيدته الدالية معتبرة من مختار أشعار العرب في الجاهلية وحكمها وهي التي يقول في مطلعها :

نام الخلي وما أحس رقادي والههم محتضر لدى وسادي

وكان مسروق بن المنذر النهشلي سيدا جوادا وكان مؤثرا للأسود كثير الرfid له ، والبر به ، ولما مات رثاه وحزن لفقده وفي ذلك يقول :

يا لهف أُمي إذ أودى وفارقني أودى ابن سلمى نقي العرض مرموقا

واتصل بالنعمان ملك الحيرة ونادمه .

ومنهم أم أبي جهل وهي أسماء بنت مخربة .

وممن أدرك الإسلام وآمن : خالد بن مالك بن رباعي .

ومن بني مجاشع : صعصعة بن ناجية بن محمد بن سفيان بن مجاشع ، جد الفرزدق الشاعر ، روى ابن أبي عاصم وابن السكن والطبراني من طريق الطفيل بن عمرو عن صعصعة أنه قدم وأسلم وتعلم آيات من القرآن . ويقال إنه كان يشتري المؤودات : اشترى ثلاثين مؤودة إلى أن جاء الإسلام . وجدة صعصعة لأمه جارية وهبها كسرى لزرارة فآلت إلى مسكين بن حارثة وولدت له قفيرة أم صعصعة وكان جرير يعيها على الفرزدق . وكان لصعصعة قيون : منهم جبير ووقبان وديسم ، فجعل جرير مجاشعا كلها قيوناً ، واتخذت سبة على الفرزدق : مر خلف بن خليفة الشاعر على الفرزدق فقال يا أبا فراس من الذي يقول :

هو القين وابن القين لا قين مثله لفتح المساحي أو لجدل الأدهم

والمساحي الآلات يجرف بها الطين وما أشبهه ، والأدهم القيود ، فأجابه الفرزدق من فوره ، هو الذي يقول :

هو اللص وابن اللص لا لص مثله لتقب جدار أو لصر الدراهم

ومنهم أعين بن ضبيعة بن ناجية ابن أخي صعصعة ووالد النوار زوج الفرزدق ، ذكره في الاستيعاب ولم يذكر ما يدل على صحبته ، وهو الذي عقر الجمل في موقعة الجمل ، وقد قتل غيلة في البصرة سنة ٣٨هـ .

ومنهم ابن عم صعصعة : الأقرع بن حابس بن عقال ، أسلم قبل الفتح وشهد فتح مكة وحنينا والطائف ، وهو من المؤلفة قلوبهم ، وروى البخاري في تاريخه الصغيرة ويعقوب بن سفيان بإسناد صحيح من طريق محمد بن سيرين أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس استقطعا في خلافة أبي بكر أرضا فقال لهما عمر إنما كان النبي ﷺ يتألفكما على الإسلام فأما الآن فاجهدا جهدكما ورواه في الفتوح مطولا .

ومنهم الحتات^(١) بن يزيد كان من بين وفد تميم . وروى ابن هشام أن رسول الله ﷺ أخى بين الحتات وبين معاوية رضي الله عنهما ، ولما مات الحتات في خلافة معاوية ورثه فقال الفرزدق في ذلك :

أبوك وعمي يا معاوي أورثا ترثا فنحتاز الترات أقربه
فما بال ميراث الحتات أكلته وميراث حرب جامد لك ذائبه
فدفع إليه ماله .

ومن بني دارم : بنو عبدالله بن زيد رهط المنذر بن ساوي ملك البحرين وكان يعترف للفرس بتبعية اسمية وكان نصرانيا . وقد بعث رسول الله ﷺ إلى البحرين قبل فتح مكة : العلاء بن الحضرمي فدعا المنذر إلى الإسلام فأسلم ، وصالح العلاء والمنذر من بقي دينه على الجزية .

ومن بني دارم : بنو عدس ، ومن هؤلاء حاجب بن زرارة وكان من النفر الذين بعثهم النعمان بن المنذر إلى كسرى حين سمع منه الحط من شأن العرب وتهجين أمرهم ، وهو صاحب القوس المشهورة ، فقد توالى على

(١) عند ابن اسحاق الحتات ووافقه السهيل ، وعند ابن هشام : الحتات — وفي السيرة الحلية الحجاب .

مضر سنوات جذب كادت تهلكهم ، فجمع حاجب قومه وقال لهم: (إني أزمعت على أن آتي الملك فأطلب إليه أن يأذن لقومنا فيكونوا تحت هذا البحر — الريف — حتى يُحيوا) ثم ارتحل حتى أتى كسرى فشكا إليه شدة القحط وطلب منه أن يأذن لقومه في الإقامة في حد بلاده . فقال له كسرى: (أنكم معشر الغرب غدر ، حرصاء على الفساد ، فإن أذنت لهم أفسدوا البلاد وأغاروا على الرعية وآذوهم) . فقال حاجب: (فإني ضامن للملك ألا يفعلوا) قال (ومن لي بأن تفي بما تقول ؟) قال: (أرهناك قوسي بالوفاء بما ضمنت لك) ولما رأت حاشية الملك قوسه سخرها منه : وقالوا (بهذه العصا تفي الملك بما ضمنت له !) فقال الملك: (ما كان ليسلمها لشئ أبدا) وأمرهم فقبضوها ، وأذن لقومه أن يدخلوا الريف . فمكثوا مدة القحط ومات حاجب أثناء ذلك .

وثبت في جميع كتب الحديث أن الناس استغاثوا برسول الله ﷺ فاستسقى لهم فمطروا ، وزال القحط ، وعاد الناس إلى بلادهم .

وأراد عطارذ أن يحل الضمانة التي عقدها أبوه حاجب بن زرارة فارتحل إلى كسرى يطلب القوس فقال له (هلك والدي . وقد وفى لك أيها الملك بما ضمن لك عن قومه .) فرد عليه كسرى قوسه وكساه وفي ذلك قال الشاعر يفخر بحاجب :

وأقسم كسرى لا يصالح واحدا من الناس حتى يرهن القوس حاجب

وأسلم حاجب بن زرارة قبل قدوم وفد تميم وبعثه ﷺ على صدقات قومه . وله أخ يدعى لقيطا رآه أبوه يوم يختال بنفسه فقال له: (كأنما جئنتي بمائة من هجان ابن المنذر أو تزوجت بنت قيس بن خالد) وكان سيد ربيعة ، فأقسم

لقيط ألا يمس الماء رأسه ولا يأكل لحما حتى يجمعهما جميعا أو يموت ،
وخرج فلم يرجع حتى تزوج بنت قيس وجاء بمائة من هجان النعمان بن
المنذر ، وقد قتل يوم شعب جيلة .

جرى ذكر دارم في مجلس عبد الملك بن مروان فقال : والله لا تنسى العرب
هؤلاء الثلاثة أبدا : لقيط بن زرارة وقعقاع بن زرارة ومحمد بن عمير بن
عطارد بن حاجب .

وأبلى الذين تمكن الإسلام منهم من تميم بلاء حسنا في الإسلام ، ومن قوادهم
الذين سادوا تميما كلها هلال بن أحوز المازني عرفه ابن حزم بأنه قاتل آل
المهلب وفيه يقول جرير :

أتسون شدات ابن أحوز معلما إذا الموت بالموت ارتدى وتأزرا

واشتهر من شعرائهم في الإسلام : جرير بن عطية الخطفي من بني كليب بن
يربوع .

والفرزدق : أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية وكلاهما توفي
١١٠هـ .

والفرزدق من بني مجاشع ولعل حب الفخر المتأصل في عروق تميم هو الذي
جعل هذين الشاعرين يتفننان في ضروب الفخر والهجاء .

دخل الفرزدق يوما على سليمان بن عبد الملك وكان يكرهه لكثرة فخره
فتجهمه وتكرر له ، وأغلظ له في الخطاب حتى قال له : من أنت لا أم لك ! .

قال : أو ما تعرفني يا أمير المؤمنين ، قال : لا !

قال : أنا من قوم منهم أوفى العرب ، وأحلم العرب ، وأسود العرب ، وأجود العرب ، وأشجع العرب ، وأشعر العرب .

فقال سليمان : والله لتحتجن لما ذكرت أو لأوجعن ظهرك ولأبعدن دارك .

قال : أما أوفى العرب فحاجب بن زرارة رهن قوسه عن العرب كلها وأوفى .
وأما أحلم العرب فالأحنف بن قيس يضرب به المثل حلما . وأما أسود العرب فقيس بن عاصم قال له رسول الله ﷺ (هذا سيد أهل الوبر) — وهذا تحريف من الفرزدق لمعنى الحديث — وأما أشجع العرب فالحرث بن هلال السعدي ، وأما أجود العرب فخالد بن عتاب بن ورقاء الرياحي ، وأما أشعر العرب فهأنذا عندك .

فاغتم سليمان مما سمع من فخره وقال : فما جاء بك ! لا شيء لك عندنا ، فارجع على عقبك ، فقال الفرزدق :

أتيناك لا من حاجة عرضت لنا إليك ولا من قلة في مجاشع

قال ابن أبي الحديد : لو ذكر عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي وقال إنه أشجع العرب لكان غير مدافع ، ولكنه أعرض عنه وإن كان تميمياً لأن جريراً يفتخر به فحملته عداوة جرير على العدول عن ذكره .

ولا ننسى أن لتميم قسطاً وافراً في الفتن التي حدثت في الإسلام . فمنهم سجاح بنت الحارث اليربوعي ، نشأت في بني تغلب في الجزيرة وادعت النسب في السنة العاشرة من الهجرة ، وآمن بها عدد من نصارى تغلب ، وزحفت بهم وبمن تبعها من بني شيبان وإياد قاصدة الحجاز واتصلت حين مرت بنجد بمالك بن نويرة سيد بني يربوع وكانت منازلهم غرب الدهناء ، ودعته إلى الانضمام إليها فأقنعها بالعدول عن مهاجمة المدينة وكان ذلك في

أول خلافة الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه ، ثم اتصلت بوكيع بن مالك زعيم بني حنظلة فلم تظفر بطائل فغادرت أرض تميم واتجهت إلى اليمامة ، وكان مؤذنها شبت بن ربعي اليربوعي ثم صار من الخوارج .

وإذا كانت البداوة غالبية على طباع تميم فإنهم فطروا على عدم الانطباع للسلطان وكان لهم نصيب في جميع الفتن التي نشبت في العهد الأموي . ويعتبر شبت بن ربعي أول من حرر الحرورية ثم ظهر من تميم غلاة الخوارج أمثال نافع بن الأزرق الحنظلي ، وقطري بن الفجاءة ، وعبدالله بن الصفار السعدي وصالح بن مسرح التميمي من بني امرئ القيس بن عبد مناة ، ومنهم زعيم فرقة الإباضية عبدالله بن إياض .

بداية الإسلام في بني تميم :

أسلم أفراد من بني تميم من حلفاء قريش قبل الهجرة بل وقبل دخول دار الأرقم . وأسلم بعض بني تميم قبل الفتح ، وأرسل رسول الله ﷺ إليهم من يدعوهم إلى الإسلام ، وقد ورد في قصة الأحنف بن قيس أن رسول الله ﷺ أرسل رجلا من بني ليث يدعو بني عبيد -- رهط الأحنف -- إلى الإسلام .

وممن دخل في الإسلام قبل الفتح حاجب بن زرارة وقد ولاه رسول الله ﷺ على صدقات قومه ، وكانت وفاة حاجب سنة ٣ هـ . ويؤيد ذلك رواية أبي حاتم في كتاب المعمرين : بينما صفوان بن أسيد في بعض ضواحي المدينة يسير بعد قدوم حاجب بن زرارة بزمان ، إذ مر به رجل من بني ليث كان يطلب بني تميم بدم فقتله ، فوثب عليه حاجب ووكيع أبناء زرارة فأخذاه فأتيا به النبي ﷺ ، فقالا : هذا قتل صاحبنا... الحديث. وفيه أن أولياء القتل عفوا عن القاتل بغير دية. وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه عن سريع بن الحكم السعدي أنه قال : خرجت وفد بني تميم حتى قدمنا على رسول الله ﷺ فأديننا صدقات أموالنا . وممن آمن قبل الفتح : الأقرع بن حابس التميمي .

سَرِيَّةُ عَيْنَةَ بن حصن إلى بني العنبر :

وبنو العنبر من تميم ومنهم بنو عمرو بن جندب بن العنبر وكانوا قد أصابوا دما في قومهم فارتحلوا عنهم ونزلوا بأخوالهم من خزاعة . وبعث رسول الله ﷺ بشر بن سفيان^(١) على صدقات بني كعب من خزاعة فلما جمعت خزاعة الصدقة . استنكر بنو العنبر ذلك وأبوا ، وابتدروا القسي وشهروا السيوف ، فانصرف عنهم بشر وقدم على رسول الله ﷺ وأخبره بما حدث . فأرسل إليهم عيينة بن حصن الفزاري في سبعين ومائة طبقا لرواية ابن شاهين عن ابن عباس ، و في رواية الواقدي أنهم خمسون فارسا ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري — فكان عيينة يسير بالليل ويكمن بالنهار حتى أتى مكانهم بالسقيا فهجم على ظعنهم إذ كان الرجال قد خرجوا في سرحهم . وفي رواية البغوي أنهم لما علموا بقدومه هربوا وتركوا عيالهم فحدثت مناوشة بسيطة انتهت بأسر أحد عشر رجلا وسبي إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا . وكان ممن سبي من نسائهم يومئذ: أسماء بنت مالك، وكأس بنت أري ، ونجوة بنت نهد، وجميعه بنت قيس ، وعمرة بنت مطر ، ونعامه زوجة الحريش التميمي، فلما قدم عيينة بالأسرى، أرسل بنو العنبر وفدا من تميم في شأنهم، وكان من بينهم كما رواه ابن إسحاق :

(١) وفي رواية أخرى أنه نعيم بن عبدالله العدوي وتأخذ بالروايتين فيكون عاملا الصدقة بشر ونعيم رضي الله تعالى عنهما — وراجع القصة أيضا في نهاية الأرب ج ١٨ — ص ٣٢ — ط — القاهرة — ١٩٥٥ .

ربيعة بن ربيع^(١) ، وسبرة بن عمرو ، والققعاق بن معبد بن زرارة ، ووردان ابن^(٢) محرز وقيس بن عاصم ، ومالك بن عمرو والأقرع وفراس^(٣) ابنا حابس .

وزاد الطبري^(٤) حنظلة بن دارم ، وفي رواية ابن الكلبي أن فيهم الأعور بن بشامة فلما جاءوا وقت الظهيرة^(٥) طفقوا ينادون رسول الله ﷺ (أن أخرج إلينا) ، فخرج إليهم صلوات الله وسلامه عليه وقصوا سبب مجيئهم . فقال لهم ﷺ : (أترضون أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو وهو على دينكم) قالوا : نعم فقال سبرة إني لا أحكم إلا وعمي شاهد وهو الأعور بن بشامة ، فرضوا به . فقال الأعور : أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم فقال ﷺ قد رضيت . ففادي النصف وأعتق الآخر .

وفد بني تميم يُشاعر ويُفاخر :

وفي المحرم من سنة ٩هـ فيما رواه ابن سعد قدم وفد بني تميم ويتراوح عدده ما بين سبعين إلى ثمانين رجلا - وعد ابن إسحاق من رجال الوفد :

(١) في الإصابة أنه ربيع بالقاف .

(٢) وفي رواية أنه محرم .

(٣) قال ابن دريد : الأقرع اسمه فراس فيكونان رجلا واحدا .

(٤) تاريخ الطبري ج ٤ - ص ١٧٦٣ - ط. ليدن ١٨٧٩ - وفي اليرة لابن هشام أنه كان من بين القتلى في هذه الواقعة .

(٥) في البداية والنهاية لابن كثير أنهم دخلوا المسجد وقد أذن بلال الظهر والناس ينتظرون رسول الله ﷺ ليخرج إليهم ، فعجل هؤلاء فنادوه من وراء الحجرات فنزل فيهم ما نزل - ج ٥ - ص ٤٥ - ط. ١٩٣٢ .

عطار د بن حاجب بن زرارة ، والحتات بن يزيد ، والأقرع بن حابس وكلهم من بني دارم والزبرقان بن بدر أحد بني بهدلة ، وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم من بني منقر ونعيم بن يزيد ، وقيس بن الحارث .

وممن جاء عده في روايات أخرى : رباح بن الحارث المجاشعي ، وخالد بن مالك بن ربيعي عده مقاتلاً في تفسيره ، وعطاء بن حابس عده مقاتل أيضاً .

ودخلوا المسجد في مظاهرة وكان رسول الله ﷺ في بيته ، فطفقوا ينادون (يا محمد أخرج إلينا) .

قال البغوي^(١) يروى عن جابر أنه قال : جاءت بنو تميم فنادوا على الباب (أخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين) .

فسمعها رسول الله ﷺ فخرج وهو يقول (إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين) .

فقالوا (نحن ناس من بني تميم جئنا بشعرائنا وخطبائنا لنشاعرك ونفاخرك) . فقال رسول الله ﷺ (ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا ما عندكم)

قال ابن إسحاق :

فقام عطار^(٢) بن حاجب فقال :

(٢) هامش تفسير ابن كثير — ج ١ ص ٩ — ١٠ .

(٢) في البحر المحيط لأبي حيان : أن الزبرقان بن بدر قال لشاب منهم : أفخر وأذكر فضل قومك فقال نحوا من رواية إسحاق . ج ٨ — ص ١٠٦ ط . سنة ١٣٢٨ هـ . ووافقه تلميذه ابن مكتوم القيسي — هامش البحر المحيط .

الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدة ، فَمَنْ مِثْلنا في الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، و إنا نعرف بذلك .

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا .

ثم جلس .

فقال ﷺ لثابت بن قيس بن شماس — وكان خطيب رسول الله ﷺ — قم فأجب الرجل في خطبته . فقام ثابت فقال :

الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه قضى فيهن أمره ولم يك شئ قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسبا ، وأصدقاه حديثا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، وأئتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوو رحمة ، أكرم الناس حسبا ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس أفعالا ، ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب الله حين دعاه رسول الله ﷺ : نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، و من كفر جاهدناه في الله أبدا وكان قتله علينا يسيرا . أقول قولي هذا واستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .

ثم قال الزبرقان^(١) لأحدهم : قم فقل أبياتا تذكر فيها فضل قومك . فقام فقال :
 منا الملوك وفينا تنصب^(٢) البيع^(٣) نحن الكرام فلا حي يعادلنا
 عند النهاب وفضل العز يتبع وكم قسرنا من الأحياء كلهم
 من الشواء إذا لم يؤنس القرع^(٤) (ونحن^(٥)) نطعم عند القحط مطعما
 من كل أرض هويبا ثم نصطنع ثم نرى الناس تأتينا سراتهم
 للنازليين إذا ما أنزلوا شبعوا فننحر الكون غيبا في أرومتنا
 إلا استقادوا وكاد الرأس ينقطع فلا ترانا إلى حي نفاخرهم
 إنا كذلك عند الفخر نرتفع إنا^(٦) أبينا ولم يأبى لنا أحد
 إفيرجع القوم والأخبار تستمع فمن يفاخرنا في ذاك يعرفنا
 ثم جلس .

فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال ،
 فقام حسان فقال :

قد بينوا سنة للناس تتبع إن الذوائب من فهر وإخوتهم
 تقوى الإله وكل الخير يصطنع يرضى بها كل من كانت سريرته
 أو حاولوا النفع في أشياءهم نفعوا قوم إذا حاربوا ضرروا عدوهم
 إن الخلائق فاعلم شرها البدع سجية تلك منهم غير محدثة
 فكل سبق لأدنى سبقهم تبع إن كان في الناس سباقون بعدهم
 عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم

(١) أسند ابن إسحاق هذا الشعر لزبرقان وتعقبه ابن هشام بأن أكثر أهل العلم لا ينسبه له .

(٢) وعند ابن هشام (منا الملوك وفينا تقسم الربع) .

(٣) بيوت العبادة .

(٤) من هنا إلى آخر الأبيات نقلا عن الطبري ج ٤ ص ١٧١٣ - ط ليدن .

(٥) القرع السحاب الرقيق .

(٦) عند أبي حيان (إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد) .

أو وازنوا أهل مجد بالندى مَنَعُوا
لا يطبعون ولا يردبهم طمع^(١)
ولا يمسهم من مطمع طبع
كما يدب إلى الوحشية الذرع^(٢)
إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
وإن أصيبوا فلا خور ولا هُلَع
أسد بحلية في أساغها فدع^(٣)
ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
سُما يخاض عليه الصاب والسلع
إذا تفرقت الأهواء والشيع
فيما أحب لسان حائل صنع
إن جد بالناس جد القول أو سمعوا

فلما فرغ حسان ، قال الزبرقان :
إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
وأن لي في أرض الحجاز كدارم
ونضرب رأس الأصيد المتفاقم
نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم
لا يبخلون على جار بفضلهم
إذا نصبنا لحى لم تدب لهم
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبا
لا يفخرون^(٣) إذا نالوا عدوهم
كأنهم في الوغى والموت مكتنع
خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا
(فإن^(٤)) في حربهم - فاترك عداوتهم -
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
أهدي لهم مدحتي قلب يؤازره
فإنهم أ فضل الأحياء كلهم

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا
بأننا فروع الناس في كل موطن
وأنا نذود المعلمين^(١) إذا انتخوا^(٢)
وأن لنا المرباع في كل غارة

(١) القصيدة من رواية ابن اسحاق - وعند الطبري (لا يطمعون ولا يردبهم طمع) على إحدى الروايات ج ٤ - ٢ ١٧١٤ .

(٢) كما يدب ولد البقرة الوحشية إليها .

(٣) عند الطبري (لا فخر إن هم أصابوا عدوهم) .

(٤) مكتنع : مقترّب . حلية : مكان تكثر في الأسد .

(٥) من هنا إلى آخر القصيدة رواية الطبري .

(١) الشجعان الذين يضعون العلامة كي يعرفوا في القتال .

(٢) إذا ملأتهم نخوة القتال .

فقام حسان بن ثابت فأجابه ، فقال :

وجاء الملوك واحتمال العظام
على أنف راض من معد وراغم
بجابية الجولان وسط الأعاجم
بأسيفنا من كل باغ وظالم
وطبنا له نفسا بفئ المغام
على دينه بالمرهفات الصوارم
ولدنا نبي الخير من آل هاشم
يعود وبالا عند ذكر المكارم
لنا خول ما بين ظئر وخادم ؟!

هل المجد إلا السودد العود والندى
نَصَرْنَا وآوينا النبي محمداً
بحي حَرِيد أصله وثرأؤه
نصرناه لمّا حل وسط ديارنا
جعلنا بنيّنا دونه وبناتنا
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا
ونحن ولدنا من قریش^(٣) عظيمها
بني دارم لا تفخروا إن فخركم
هليستم ! علينا تفخرون وأنستم

(قال أبو حيان : فقال النبي ﷺ : " لقد كنت غنيا يا أخا دارم أن يذكر منك ما
ظننت أن الناس قد لتتوره " فكان قوله ﷺ أشد عليهم من جميع ما قال حسان)
وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
ولا تلبسوا زيا كزي الأعاجم
فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم
فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا

فلما فرغ حسان بن ثابت ، قال الأقرع بن حابس : وأبي إن هذا الرجل لمؤتى
له : لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم
أحلى من أصواتنا .

(٣) يشير إلى أخواله صلوات الله وسلامه عليه من بني النجار .

فأسلم القوم وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم . وعند الواقدي أنه ﷺ أجازهم على كل رجل اثني عشر أوقية ونشا ، إلا عمرو بن الأهتم فإنما أعطي خمس أواق لحدائثة سنة .

قال ابن إسحق : وكان عمرو بن الأهتم قد خلفه القوم في ظهرهم (إيلهم) وكان أصغرهم سنا فقال قيس بن عاصم ، وكان يبغض عمرو بن الأهتم : يا رسول الله ، إنه قد كان رجل منا في رحالنا وهو غلام حدث ، وأزري به ، فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطى القوم ، فقال عمرو بن الأهتم حين بلغه أن قيسا قال ذلك يهجو^(١) :

ضد الرسول فلم تصدق ولم تصب ظللت مفترشا هلباك تشتمني
والروم لا تملك البغضاء للعرب إن تبغضونا فإن الروم أصلكم
مؤخر عند أصل العجب والذنب سدنا فسوددنا عود ، وسوددكم

تعيين العمال على صدقات بني تميم :

روى الإمام البخاري عن ابن مليكة قال (كاد الخيران أن يهلكا — أبو بكر وعمر رضي الله عنهما — رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع وأشار الآخر برجل آخر — قال نافع لا أحفظ اسمه — فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما : ما أردت إلا خلافي — قال ما أردت خلافاك — فارتفعت أصواتهما عند ذلك) .

وفي رواية أخرى عند البخاري عن عبدالله بن الزبير قال (قدم ركب بني تميم على النبي ﷺ ، فقال أبو بكر " أمر القعقاع بن معبد بن زرارة وقال عمر :

(١) الشعر رواية الطبري .

"بل أمر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافاك . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما) .

وفي حديث ساقه الحافظ الإمام ابن حجر نقلا عن كتاب النصوص لصاعد الربيعي أن الخلاف وقع على القعقاع وخالد بن مالك النهشلي وفيه : فقال ﷺ (لولا أنكما اختلفتما لأخذت برأيكما) فرجعا ولم يولهما شيئا . قال ابن حجر : وذكر أبو أحمد العسكري هذه القصة في الصحابة أيضا — إلا أن ابن الأثير تعقب هذه الرواية بأن خالد بن مالك لم يذكر له صحبة إلا العسكري — وقد ساق ابن حجر ردا على هذا حديثا ذكره ابن عبد البر :

وفيه أن النبي ﷺ قال للقعقاع ولخالد قد عرفتكما . وأراد أن يستعمل أحدهما على بني تميم فاختلف أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما .

ويؤخذ من ذلك : أن الاختلاف تكرر تارة مع القعقاع وتارة مع خالد بن مالك والأقرع بن حابس . كما يؤخذ من الحديث : أنه ﷺ كان يستشير أهل الدراية من الصحابة عند تعيين الأمراء من القبائل ، وإذا حدث خلاف بينهم ترك اختيارهم وقد ولى صلوات الله وسلامه عليه على بني حنظلة مالك بن نويرة ، وتعرف حكمة هذا الاختيار : إذا ما علمنا ثبات مالك بن نويرة في أحلك الأوقات بعد وفاته ﷺ ونعني حروب الردة .

أما بنو سعد فقسمها ﷺ بين قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر .

روى الإمام البيهقي عن محمد بن الزبير الحنظلي قال : قَدِمَ على رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهم ، فقال ﷺ لعمرو بن الأهم (أخبرني عن الزبرقان ، فأما هذا فلست أسألك عنه) وأراه عرف قيساً . قال الحافظ ابن حجر إسناده حسن إلا أن فيه انقطاعا ولم يسأل صلوات

الله وسلامه عليه عمرو بن الأهتم عن قيس بن عاصم لأنه من أبناء عمومته وكلاهما من بني جعفر ، أما الزبرقان فهو من بني بهدلة ، وكان بين عمرو وبين قيس شيئا ، ويقال : إن قيس بن عاصم ضرب والد عمرو على وجهه فأصاب فاه ولذا لقب بالأهتم واسمه سنان.

ورواه البيهقي من وجه آخر موصولا بإسناده عن ابن عباس قال :

جلس إلى رسول الله ﷺ قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم التميميون ففخر الزبرقان فقال : يا رسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب ، أمنعهم من الظلم وأخذ لهم بحقوقهم وهذا يعلم . يعني عمرو بن الأهتم .

فقال عمرو بن الأهتم : إنه لشديد العارضة ، مانع لجانيه ، مطاع في أدنيه^(١)، فقال الزبرقان : والله يا رسول الله لقد علم مني غير ما قال وما منعه أن يتكلم إلا الحسد ، فقال عمرو بن الأهتم : أنا أحسدك ! فوالله إنك للنميم الخال ، حديث المال ، أحق الوالد ، مضيع في العشيرة !! والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولا وما كذبت فيما قلت آخرا ، ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت ، ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعا . فقال ﷺ : إن من البيان لسحرا^(٢) .

(١) قومه .

(٢) القصة مروية في كتب الأدب مثل زهر الآداب ، ومجمع الأمثال . وفيها أن عمرو بن الأهتم قال : أما والله لئن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق العطن (العطن المناخ حول الماء وهو كناية عن البخل) زمر (قليل) المروءة ، أحق الأب ، لنيم الخال ، حديث الغنى ! فرأى الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لما اختلف قوله .

وكان موقف الزبرقان بن بدر في حروب الردة مشرفا وقد أرسل حصين بن هريم التميمي إلى محكم بن الطفيل ينهائه عن الردة .

وكان في بني تميم شدة في الخلق لسكناهم في البادية ، روى البخاري عن عمران بن حصين قال :

جاء نفر من بني تميم إلى النبي ﷺ فقال ﷺ : أقبلوا البشرى يا بني تميم . قالوا : قد بشرتنا فأعطنا — مرتين — ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال ﷺ : أقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذا لم يقبلها بنو تميم . قالوا : يا رسول الله جئنا نسألك عن هذا الأمر^(١)... الحديث .

الأمور المستفادة من القصة :

١- فيها دليل على كمال تمكنه ﷺ في معالجة النفوس وهدايتها ، فما زال بهؤلاء الذين لم يقصدوه إلا للمباهاة والمفاخرة حتى اجتث من نفوسهم حمية الجاهلية ، وطهرهم من أدران الشرك وفتح قلوبهم للإيمان بالله عز وجل .

٢- فيها دليل على شدة رحمته ﷺ بالأمة ، وشدة حرصه على هدايتها ، فبالرغم من إخلالهم بقواعد الآداب التي يستلزمها مقام الرسالة والنبوة ، بادر صلوات الله وسلامه عليه بالخروج إليهم وأذن لهم فيما يريدون وما زال يرفق بهم صلوات الله وسلامه عليه حتى آمن من لم يؤمن منهم .

(١) صحيح البخاري — كتاب بدء الخلق .

• تخريج الحديث : قال الحافظ ابن حجر : أخرجه ابن شاهين عن مقسم بن عباس ويعقوب بن سفيان من طريق وقاص بن سريع بن الحكم .

٣- فيها دليل على كمال إعراضه صلوات الله وسلامه عليه عما سوى الله تعالى ؛ إذ لم يجبه بنفسه فيما قصدوه وهو ﷺ يجيب كل سائل عن أي مسألة من مسائل التشريع مهما كان السؤال ، بل أذن ﷺ للمختصين من أصحابه بإجابتهم في مشاعرهم ومفاخرتهم .

٤- فيها دليل على قوة سريان كمالاته صلوات الله وسلامه عليه إلى صحبه رضوان الله تعالى عليهم ، إذ لم يقبلوا في كلامهم على ما ألفتهم العرب من عناصر الفخر ، بل جعلوا محور مقالهم التحدث بنعم الله تعالى أن هداهم للإيمان ، وشرفهم بالجهاد في سبيل نصره رسول الله ﷺ والدعوة إلى الإسلام .

الإسلام يحسم الأضرار النفسية والاجتماعية للتفاخر :

التفاخر داء وبيل يؤدي إلى فساد الفرد والمجتمع ، وهو يهيئ أرض النفس لتكاثر جراثيم الآفات النفسية والخلقية وما ينشأ عنها من أمراض تلازم المجتمع فهو يؤدي إلى :

الكبر والعجب والخيلاء ، والكف عن العمل الصالح والارتكان على المفاخر ، وهذا يفضي إلى التحلل من كل واجب .

ومن مستلزمات التفاخر : الغش الذي يلجأ إليه صاحبه ليؤيد دعواه فيذكر ما ليس فيه و (من غشنا فليس منا) رواه الطبراني وأبو نعيم . ومنها المنّ على الناس بما يفعل ولو كان شراً وبما لا يفعل مع مطالبته بمدحه على ما لم يفعل من خير .

وقد جاء في الحديث الشريف : (لا يدخل الجنة خب — أي لئيم — ولا بخيل ولا منان) رواه الترمذي فيصبح الواجب غرما ، والغرم غنما ، والمتفاخر إنما يجعل فخره ضريبة على الناس يتقاضى بها ما عندهم بدون وجه حق . وما أسرع الحمية إلى المتفاخر إذا ظن أن هناك من ينافسه ويضاهيه في فخره ، إذ يعلم أن المساواة مع غيره في الفخر تقتضي إسقاط حقوق ابتدعها وفرضها على غيره .

ومن مساوئ التفاخر الاستهزاء بالناس وتتبع عوراتهم ليظهر أنه خير منهم . ومن مقتضياته الرياء ومحاولة الفرد الظهور بما ليس فيه .

والتفاخر يفضي إلى معاندة الحق وإسقاط الحقوق والتشبه بالفسقة والظلمة والجبارين ليشار إلى صاحبه بالبنان مثلهم ، كما يقتضي الرضا بالظلم والإعانة عليه ، والتسابق على المهلكات واعتبارها مقاييس للفخر الزائف ومن الآفات النفسية التي يستلزمها داء التفاخر حب الذات والأنانية وجنون العظمة والسيطرة وحب الرياسة لذاته ومن أكبر البلايا في عصرنا قيام الشموليين من شيعة وشيوعيين بالمن على الشعوب بما أحدثوه من فساد شامل ومالم يعملوه من خير .

والتفاخر جاء من تمسك الإنسان بقيم مزيفة ، يفني حياته في سبيل تحقيقها والدفاع عنها ، والتعصب لها ، وحبك الشيء يعمي ويصم . وما أظلت السماء من إله يعبد من دون الله أعظم من هوى متبع .

والذي يتتبع آداب الإسلام يؤمن بإعجاز ذلكم الدين الحنيف في اقتلاع الآفات من جميع جذورها ، ويشهد بإعجازه العلمي صلوات الله وسلامه عليه في استئصال العيوب النفسية واجتثاثها لنتهيأ النفوس لقبول الكمالات التي تقتضيها

استعداداتها . وتفصيل ذلك يرتبط ببيان صلوات الله وسلامه عليه للإعجاز
القرآني وارتباط ذلك بصفاء النفوس وطهارتها وكمالها .

ويكفي هنا أن نذكر بعض ما ورد من الحديث الشريف في التحذير من
التفاخر والكبر والخيلاء والعصبية :

(إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد
على أحد) رواه أبو داود في الأدب وابن ماجه في الزهد .

(إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء : إنما هو مؤمن تقي
وفاجر شقي ، الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب) والعبية هي الكبر والفخر
والنخوة . رواه أبو داود والترمذي وحسنه .

(لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من غيمان ، ولا يدخل الجنة
أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء) رواه مسلم وأبو داود والترمذي
وابن ماجه .

وجاء في الحديث القدسي أن الله تبارك وتعالى يقول (الكبرياء ردائي
والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار) رواه مسلم وابن
حبان وأبو داود وابن ماجه ، ورواه الحاكم بلفظ (الكبرياء ردائي فمن
نازعني ردائي قصمته) وقال صحيح على شرط مسلم .

(يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من
كل مكان) من حديث رواه أحمد و الترمذي وحسنه .

(لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب مع الجبارين) رواه الترمذي في البر .
وجاء في تعريف الكبر أنه : بطر الحق و غمط الناس .

وفي التحذير من داء الافتخار بالعصبية :

(ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية) رواه أبو داود (من قتل تحت راية حمية ينصر العصبية ، ويغضب للعصبية ، فقتلته جاهلية) رواه مسلم والنسائي .

وعن وائلة بن الأسقع أنه قال : قلت يا رسول الله ما العصبية ؟ قال ك أن تعين قومك على الظلم . فتأمل لهذا الإعجاز في تعريف العصبية .

ومن الكبر الخيلاء في المشية :

(لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا) متفق عليه .

(بنس العبد عبد بخل واختال ونسي الكبير المتعال ، بنس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى ، بنس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلا ، بنس العبد عبد عتا وطغى ونسي المبتدا والمنتهى ، بنس العبد عبد يختل الدين بالشهوات ، بنس العبد عبد طمع يقوده ، بنس العبد عبد هوى يضلّه ، بنس العبد عبد رغب يذله) رواه الترمذي وقال غريب ، والحاكم وصححه ، والبيهقي وضعفه ، والطبراني من حديث نعيم الغطفاني مختصرا .

وكان الصحب رضوان الله تعالى عليهم لقوة فهمهم للدين وشدة علمهم بأسرار النفس كانوا أشد ما يخشونه أدواء النفس الخفية ، فكان أحدهم مهما بلغت مكانته يتهم نفسه ، وهما هو عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه — وهو هو على فضله وبلائه في الإسلام ومكانته — كان إذا ورد عليه الخوف من الله عز وجل يأتي باب حذيفة بالليل ويقول : ناشدتك الله : أنا ممن عدني النبي ﷺ في المنافقين ؟ فيقول حذيفة : والله ما أنت منهم ، فيقول : إنك عندي لصادق ، ولكن عملي يشبه عملهم ، فيرجع إلى بيته فيبكي على نفسه ، وربما التزم الفراش حتى يعود أصحابه .